اعظم حرب في التاريخ

وكيف مرّت ايامها

هو كتابٌ مدرسيٌّ وُضِعَ لطلبة التاريخ الحديث جمع زبدة حوادث الحرب الكبرى مع مراعاة الانصاف في سرد الحقائق وعلى اسلوب جذاب تفهمهُ العامَّة وترضى بهِ الخاصَّة

تأليف

جرجس الخوري المقدسي ب . ع

منشئ

مجلة المورِد الصافي

المطبعة الادبية — بيروت سنة ١٩٢١

اعظم حرب في التاريخ

وكيف مرّت ايامها

هو كتابٌ مدرسيٌّ وُضِعَ لطلبة التاريخ الحديث جمع زبدة حوادث الحرب الكبرى مع مراعاة الانصاف في سرد الحقائق وعلى اسلوب جذاب تفهمهُ العامَّة وترضى بهِ الخاصَّة



تأليف

جرجس الخوري المقدسي ب. ع

منشئ

مجلة المورِد الصافي

المطبعة الادبية — بيروت سنة ١٩٢١

اعظم حرب في التاريخ

وكيف مرت علينا ايامها

تمهيد

في صباح يومٍ من صيف سنة ١٩١٤ م جلستُ تحت صنوبر احدى روابي لبنان وقد اطلّت شمس النهار سلطانة الانوار من الثغرة التي بين الكنيسة وصنين فانتعشت الطبيعة واخذت ديوك القرى تصيح وبدأت العصافير تغرّد على الافنان و(زيزان) الحصائد تتغنى بالقصائد

وهبّت النسيمات اللطيفة تداعب اوراق الصنوبر فوق راسي فاحدثت هديراً اشبه بهدير الامواج — هي نغماتٌ موسيقية امتزجت بروائح عطرية لله ما اطيبها واحلاها . وكأنّ الكون اشترك معاً في تلك الساعة بذلك السلام الناتج عن انتصار النور على الظلام

جلستُ في ذلك المكان امتع الطرف بمحاسن الكون . التفت شرقاً فارى الجبال كاسوار منيعة يعلو احدها الآخر وهي تتداخل مشتبكة بعضها ببعض — والتفت شمالاً فارى الاودية والرواسي كانها زاحفة نحو البحر تريد مهاجمته فيحدجها بعينه الزرقاء فتقف لا تتعدّى حدودها — والى الجنوب آكام بني تنوخ وهي اشبه بحرّاس تراقب ذلك الشاطيء وامامها الخلجان الجميلة تحضن قوارب الصيد الناشرة اشرعتها الطالبة رزقها — والى الغرب الاغوار والانجاد المزدانة بالاخضرار فحرجة الزيتون الكبيرة فالبساتين والحدائق الغنّاء ينساب

بينها مجرى النهر فالرمال الحمراء فبيروت الجميلة فالبحر المتسع الجوانب الممتد الاطراف

سورية ولبنان قد تغنى بهما شعراء الازمان. هما مهبط الوحي والالهامات. جمالها لا تخلق جدته. ما اطيب هواءهما. ما انقى ماءهما. ما اصفى سماءهما — « لُبنان ومن معانيهِ الطيب الرائحة مشتقٌ من اللبان اي البخور» — مؤلَّفٌ من سلسلتين غربية وشرقية تسيران الى جهة واحدة بمحاذاة البحر طولها واحد على التقريب يفصلها سهلٌ خصيب .

اما لبنان الغربي فهو اعمر بقاع سوريه اليوم والبقعة الواقعة تحت نظرنا الان هي اعمر بقعةٍ فيه. فهي ضمن السور الطبيعي المكون من جبال جزين والباروك والكنيسة وصنين — وبين الشاطئ الممتد من طرابلس الى ما وراء صيدون — ففي هذه المنطقة ترى القرى والدساكر الجميلة متصلة منحدرةً من اعالي الجبال حتى تبلغ البحر المتوسط — بعضها فوق التلال وبعضها في بطون الأودية وبعضها في السهل بين الحدائق والاحراج فتصبح هذه الحضارة مع بيروت كانها مدينة واحدة تضم نحو نصف مليون من السكان

حالة هذه البقعة علمياً واجتماعياً

حظيت هذه المنطقة بمئات من المدارس بين ابتدائية وعالية وكلية يؤمها الطلبة من جهاتٍ متعددة — وللوطنيين شغفٌ شديد في التعلم. فان اللبناني قد يبيع ما ملكت يداه رغبةً في تعليم بنيهِ وبناته — والمدارس المنتشرة في هذه البقعة بعضها وطنية وهو العدد القليل منها — والباقي مدارس اجنبية — مدارس افرنسية واميركية وانكليزية وروسية والمانيه وتليانية وغير ذلك —

عَلَى ان تعدد المذاهب مع اختلاف التربيات كل ذلك زاد في طنبور الاختلافات نغمات

موارد هذه البقعة

تُقدَّر مساحة لبنان الغربي بنحو « (٣٢٠٠) كيلومتر مربع ومساحة اراضيه الزراعية بين جيدة التربة ورديئتها بنحو (٣٠٠) كيلو متر مربع و يقدر سكانه باربع مئة الف فيكون معدل سكانهِ بالنسبة الى كامل مساحته نحو ١٢٥ في الكيلو متر المربع و بالنسبة الى اراضيه الزراعية نحو (١٣٠٠) نفس في الكيلو متر المربع » — والخلاصة ان الزراعة في لبنان محدودة ومثلها الصناعة والتجارة والامارة فان هذه المعايش لاتقوم الا بجزء يسير من نفقات سكان لبنان ولذلك اعتمد اللبنانيون عَلَى موردين آخرين وهما المهاجرة والاصطياف — اما فكرة المهاجرة فبدأت منذ نحو خمسين سنة وما زالت تتزايد حتى اصبحت سيلاً جرف نحو ثلث السكان الى بلاد المهجر — رجال القوة في بلاد الغربة يجاهدون ويكدحون في جمع المال للانفاق عَلَى الاهل والعيال الباقين في هذا الجبل الجميل

اما مسئلة الاصطياف فلا تزال في المهد واساسها انما هو المهاجرة لان بعض الذين نجحوا في اميركا رجعوا و بنوا هذه القصور التي نراها اليوم قائمةً عَلَى هذه الروابي والتلال · ووجود هذه البنايات الجميلة وجه افكار بعض الموسرين من سواحل سوريا ومصر الى قضاء شهور الحر في لبنان متمتعين بالمناظر الحسنة و بالهواء الطيب و بالماء الزلال و بوارف الاظلال

مزيَّة خصوصيَّة للبنان

وفضلاً عن جمال مناظر هذا الجبل وطيب هوائهِ وعذوبة مائهِ فان فيه

مزية تندر في غيره من البلدان · ألا وهي الامنية الضاربة اطنابها في ربوعه التي تحسدها عليها الولايات المجاورة — فان اللبناني يا كل من اثماره و يستظل بظل اشجاره بسلام — بقرته وعنزته ونعجته تنام في البرية آمنة — ثيابه ونحاسه ومسطاره كل ذلك يبقى في العراء دون مناظر ولا رقيب — لا ضرائب ولا مزعجات بفضل امتيازات الجبل المكفولة من قبل دول اوربا — كل هذه الامور تزيد الرغبة في قضاء الصيف في لبنان لانها من دواعي الراحة والاطمئنان

احلام جميلة

عَلى ان جلوسي في ذلك المكان امتع الطرف بذلك المنظر الفتان نقلني من الزمن الحاضر الى سالف الايام · فذكرت عز الفينيقيين القدماء يوم كان شاطئهم هذا محط رحال المدنية والحضارة — يوم كانت مدنه من جزيرة ارواد الى صور مكتظة بالسكان تجارتها غامرة وأسواقها عامرة — يوم كان اهله اسياد البحار بلا منازع فتسبح الجواري امامهُ ذهابا وايابا حاملة منهُ واليه نفائس الصادرات والواردات كحرير صور وذهب اوفير وغنى ترشيش · ناجيت النفس قائلاً ما المانع يا ترى من رجوع الشاطئ الفينيقي الى مجده القديم فيعود اليهِ من اطراف المعمور بنوه الذين هجروه · فيبنون السدود في وجه الانهار المتفجرة من جوف لبنان فتتكون هنالك البحيرات الجميلة وتحول (الشلالات) الى مجانٍ كهربائية فيستنير الناس بنورها ويسيّرون حافلاتهم ويديرون الات معاملهم بقواتها فترجع مدن هذا الشاطئ الى سالف عزها

ثم قلت ما المانع من ان تعود سورية كما كانت قديماً اهراء لاوربا فيكثر في سهولها الزرع والضرع · فيزداد العمران علَى ضفاف الاردن والليطاني والعاصي

وتكثر هنالك القرى والمدن ويسكن ملايين في تلك البقاع الخصيبة ويستغني السوريون عن هجر بلادهم—وقد اتسعت دائرة احلامي الجميلة فرأيت بعين الايمان ذلك اليوم الذي فيه قد تتلاشى من العالم التعصبات العمياء من مذهبية وجنسية فيشعر البشر انهم اخوان في الانسانية فتسقط تلك الحواجز القائمة بين الطبقات وتزول الرغائب الوحشية من صدور الناس فتتوجه العقول الى اكتشاف الاكتشافات واختراع المخترعات التي تكثر مواد الغذاء وتسهل عَلَى بني البشر طرق الحياة بدلا من الدأب وراء الاختراعات الجهنمية التي يهدد بها ابناء الانسانية بعضهم بعضاً — يوم تتم اماني الانبياء فتتحول المعاقل والحصون الى معاهد علم وتهذيب. تتنور فيها الافكار وتتقوم الاخلاق وتسمو السجايا. وتتحول بوارج الحرب الى مراكب تجارية ومدافعها القتالة الى محارث والات زراعية فيرعى الذئب مع الخروف ويصبح العالم كله مملكة سلام وتعم القاعدة الذهبية القائلة «كما تريدون ان يفعل الناس بكم فافعلوا انتم هكذا بهم»

مثل هذه الخواطر كانت تجول في ذهني وانا عَلَى تلك الرابية (صيف سنة ١٩١٤) فلا ارى في تحقيقها مخالفة للمعقول ولا سيما ان حواجز كثيرة كانت تفصل الامم في الماضي قد هدمت في هذه الايام فاخذوا يتمازجون ويتفاهمون ويتبادلون المنافع الاقتصادية والعلمية والادبية وهذا يساعد عَلَى ملاشاة الروح الحزبية ويدفع المجتمع البشري الى تجنب الوقوع في مزالق الشرور التي تجر الويلات عَلَى المعمور

غيمة صغيرة

فقلت نعم ان في البلقان سحابة سياسية ولكن في العالم الوفاً من رجال العلم

والفضل يسعون في تشييد دعائم السلام . رجال حل وعقد عقولهم كبيرة فلا يسمحون بامتداد هذه الغيمة الصغيرة شفقة عَلَى الانسانية لئلا تتدهور في حرب عمومية .

الانقلاب الفجائي

ثوران العاصفة

ايها النفسُ أجملي جزعاً ان الذي تخشينَ قد وقعا

بينما كانت هذه الخواطر تجول في ذهني وانا اتفاءل خيراً بالبشرية ، شعرت فجأة بانقباض نفس واستولى عليَّ التعب فران الكرى عَلَى جفني فرأيتُ الغيمة السوداء اخذت تزيد اتساعاً وتشتد اكفهراراً وتمطر عَلَى الارض كبريتاً وناراً ثم ثارت العناصر و بدأت البروق تلمع والرعود تقصف فهالني الامر وصحت أفي يقظة انا ام في منام ! .

فكان اليَّ صوت ان ما تراهُ وتسمعه يا ابن آدم هو حقيقة لا احلام . فقد شرع العالم في خصام لم يسمع بمثله في سالف الايام فقلت ومن هم الذين تجاسروا عَلَى تعكير هذا الصفاء ، فكان الجواب . هم قادة الامم الذين حكموا الشعوب الهمجية لينشروا بينهم المدنية . هم الاساة المفكرون الذين يعالجون ادواء الهيئة الاجتماعية . هم الذين اخترعوا احدث الاختراعات واكتشفوا اهم الاكتشافات فاذلوا اعناق الطبيعة وسخروا قواها لمقاصدهم ولكنهم مع كل ما ذللوا من القوى لم يستطيعوا ان يذللوا جموح اهوائهم وغطرسة نفوسهم — هؤلاء هم الذين قام منهم الفلاسفة والكتبة والخطباء والواعظون فنددوا في وحشية القرون الماضية — الفوا جمعيات الرفق بالحيوان ودعوا الى الشفقة

والحنان — هؤلاء هم الذين انتسبوا الى النشيد الآمر بمحبة الاعداء — القائل طوبى لصانعي السلام — هم هم انفسهم تراهم الان قد تحولوا في لحظة من اخوان في الانسانية الى اعداء الداء — من حملان وديعة الى ذئاب ضارية — هاجت فيهم القوة الغضبية نخلعوا العواطف الانسانية — وكانك بسكان العالم كلهم من متحاربين ومتحايدين قد اشتبكوا في هذا العراك العام · فالذي لا يحارب بجسمه يحارب بماله · والذي لا يحارب بماله يحارب بقلمه واقواله — يحارب بعواطفه وانفعالاته واميال — يحارب بتحزباته وتمنياته ومشتهياته

فاين حروب السالفين من حروب هؤلاء المحدثين · اين معدات اولئك من معدات هؤلاء المتمدنين الشفوقين · اين مدبرو حروب ذلك الزمان من مدبري حروب هذه الايام · ايام النور والعلم والحرية والمساواة والاخاء

انظر اليهم وقد تجسمت فيهم الاحقاد والضغائن فاخذوا يقتتلون على اليابسة وتحت اليابسة — وفي الهواء — وعلى الماء وتحت الماء · يقتتلون القتال الاستماتة مستخدمين كل ما لديهم من وسائل التدمير والهلاك — واأسفاه كيف تحولت الرقة الانسانية الى خشونة بربرية · كيف تمزق الستار عن تلك المدنية المزوقة فاذا تحتها همجية تكاد تكون اشد من همجية المتوحشين · فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

كيف بدأ الخصام

حوادث الاسبوع الاول

لهذه الحرب العامة اسباب مباشرة ظاهرة واسباب اساسية مستترة · اما الاسباب الاساسية مثل الرغبة في التسود والمزاحمات الاقتصادية والميل

الى الانتقام والتخوّف والتحاسد وغير ذلك من الاسباب النفسية الداخلية فهذه نتركها الان ونتقدم الى الاسباب الظاهرة المباشرة خوفاً عليها من ان يموت حفظتها فتنسى فيخسر التاريخ بعدم تدوينها خسارةً كبرى

في ٢٨ حزيران (يونيو) سنة ١٩١٤ م هجم في سيراجيفو من اعمال البوسنه شابٌ صربيٌ يسمي برنسيب عَلَى الارشيدوق فرديننـد ولي عهد النمسا واطلق عليه الرصاص فقتلهُ مع زوجته فكان لهذا الحادث رنةٌ في العالم ولا سيما في النمسا فان حكومتها قامت وقعدت لهذا الامر واتهمت حكومة السرب بانها هي المدبرة والدافعة الى هذه الجناية فارسلت اليها بلاغاً في ٢٣ تموز (يوليو) سنة ١٩١٤ يتضمن عدة شروط تطلب من السرب قبولها ترضيةً لها عن مقتل ولي عهدها—اما حكومة السرب فمع تشبثها بانكار ارتكاب الجناية رأت ان تذعن للعمل بشروط البلاغ كلها الا شرطاً واحداً وهو السماح لهيئة عسكرية من قبل حكومة النمسا ان تدخل بلاد السرب لاجل التحقيق بنفسها للوصول الى اساس الجريمة

فلما رفضت سربيا الشرط المذكور بحجة انه يمس استقلالها اعلنت النمسا تعبئة جيوشها العامة في ٢٤ تموز (يوليو) سنة ١٩١٤ م تهديداً للسرب فقابلتها السرب في ٢٥ منهُ بالمثل وهو بمثابة جواب انها مستعدة لان تدافع عن حوضها بسلاحها

وفي ٢٨ تموز (يوليو) سنة ١٩١٤ اعلنت النمسا الحرب عَلَى سربيا وفي ٢٩ منهُ بدأت المخاصمات عَلَى الحدود السربية النمساوية وزحفت النمسا عَلَى بلغراد عاصمة السرب

وفي ٣١ تموز (يوليو) سنة ١٩١٤ اعلنت روسيا التعبئة العامة واخذت

تحشد جيوشها بدعوى انها حامية الممالك السلافية وانها مستعدة لمناوئة النمسا انتصاراً لسربيا فابلغتها المانيا وجوب الكف عن التعبئة وصرف جنودها في مدة ١٢ ساعة فلم تجاوب روسيا عَلَى ذلك البلاغ · فاعلنت المانيا الحرب عليها في اول آب (اغوسطس) سنة ١٩١٤ · وحجتها في ذلك ان النمسا حليفتها وان روسيا هددت كيان النمسا بحشد جيوشها وتهديد النمسا هو بمثابة تهديد لالمانيا

عَلَى انَّ المانيا اعلنت الحرب عَلَى روسيا وزحفت عَلَى فرنسا في ٢ آب (اوغسطس) بدعوى ان فرنسا حليفة روسيا ولا بد لها من الانتصار لها فكان جواب فرنسا عَلَى ذلك اعلان الحرب عَلَى المانيا

اما انكلترا فوقفت في بادئ الامر تجاه هذه الحوادث موقف المتحايد الذي يريد اصلاح ذات البين · فاقترح في ٢٧ تموز (يوليو) سنة ١٩١٤ وزير خارجيتها عقد مؤتمر يجتمع فيه مندوبو المانيا وفرنسا وانكلترا وايطاليا للنظر في حل المشكل السربي النمسوي حلا سلمياً فقبلت فرنسا وايطاليا هذا الاقتراح ورفضته المانيا بدعوى ان الوقت قد فات

ولما سئلت انكلترا قُبيل اشتباك الدول عما تنوي تجاه هذه الحوادث كان جوابها ان لا علاقة رسمية لها بالمسئلة السربية النمساوية ولا بمسئلة روسيا اذا هاجمت النمسا ولا بمسئلة المانيا اذا هاجمت روسيا لانها ليست مرتبطة بسابق عهد من هذا القبيل · لكنها قالت اما اذا دخلت فرنسا المعمعة فعندئذ يكون لانكلترا نظر في الامر

فلما اشتبكت فرنسا مع المانيا في ٣ آب (اغسطس) وجهت انكلترا سؤالاً الى المانيا وهو — هل في نيتها ان تهاجم باسطولها شواطئ فرنسا الشمالية (لان المحالفة بين انكلترا وفرنسا تقضي عَلَى انكلترا بالمدافعة عن شواطئ فرنسا

اذا هاجمها عدو) فكان جواب المانيا سلباً اي انها لا تنوي مهاجمة الشواطئ المذكورة باسطولها · ثم وجهت انكلترا الى كل من فرنسا والمانيا سؤالا ثانياً وهو — أفي نيتهما خرق عهدة حياد البلجيك[1] فكان جواب فرنسا عن نفسها سلباً اما جواب المانيا عَلَى هذا السؤال فكان ان خطتها الحربية تقضي عليها باتخاذ البلجيك ممراً فقط للوصول الى عدوها · ولا تنوي احتلالها احتلالاً دائماً و بعد الحرب تقوم بنفقة ما يتخرب فيها

وفي ٤ آب(اوغسطس) ارسلت المانيا انذاراً الى بلجكا تطلب منها فتح طريق لجيوشها فرفضت بلجكا هذا الطلب و بدأ الجيش الالماني بالزحف عليها فاخذت تقاومه بما لديها من القوة

وفي ٥ آب (اوغسطس) سنة ١٩١٤ اعلنت انكلترا الحرب عَلَى المانيا وحجتها ان ادخال جيشها في البلجيك هو خرق لحيادها وعدم احترام المعاهدة المصدق عليها من دول اوربا ومن المانيا نفسها

فانت ترى انه من ٢٨ تموز (يوليو) سنة ١٩١٤ الى ٥ آب (اوغسطس) اي في مدة اسبوع من الزمان اشتبكت اكبر دول اوروبا في اعظم حرب مرت في تاريخ الانسان · وكانت حجة كل دولة تحت ابطها اوعَلَى راس لسانها— كل دولة ادعت انها انما خاضت المعمعة نصرة للضعيف او محافظة عَلَى كيانها -- وفي ما يلي نورد بعض مراسلات جرت بين بعض رؤساء حكومات العالم قُبيل اعلان الحرب لما فيها من الاهمية

(١) المنصوص عنها في معاهدة سنة ١٨٣٩ وسنة ١٨٧٠

مراسلات بعض الملوك والرؤساء (١)

قُبَيل نشوب الحرب الكبرى

١ رسالة من امبراطور المانيا الى قيصر روسيا تاريخ ٢٠ تموز (يوليو) سنة ١٩١٤

بغاية الاضطراب علمت سوء الوقع الذي نجم في مملكتك اثر اعلان الحرب عَلى السرب حال كونك لا تجهل ان حركة الخواطر التي كانت موجهة من السرب ضد النمسا قد انتجت مقتل الارشيدوق فردينند ولي عهد النمسا اذ لا يزال في قلوب السربيين ذلك الميل الدموي الذي حدا بهم الى قتل ملكهم وملكتهم ولا ريب عندي انه يهم كلينا انت وانا وجميع الملوك ان يعاقب اولئك الذين تقع عليهم مسؤولية تلك الخيانة الفظيعة تأديباً لهم وعبرة لسواهم ثم من جهة اخرى لست اجهل الصعوبة التي تجدها انت وحكومتك في مناهضة الرأي الروسي · فبحق المحبة التي تربطني منذ سنين عديدة بالامبراطور جوزف ارجوك ان تبذل جهدك مستخدماً اقصى نفوذك لمساعدة النمسا في الاتفاق مع روسيا اتفاقاً سلمياً صريحاً · واني اؤمل ان تساعدوني بما لديكم من الوسائل لنتمكن من اتقاء المصاعب التي تتهدد السلم في هذه الايام

في ٢٠ تموز (يوليو) سنة ١٩١٤ غليوم

(١) سيدي الوالد بلغ الثالثة والثمانين ومع ذلك لا يزال مغرماً بالمطالعة وقد اراني هذه الرسائل بين اوراقه — نقلها في اوائل الحرب من صحف متفرقة فالفيتها تحفة سنية تناسب هذه المقدمة التاريخية

٢ فاجاب قيصر روسيا في اليوم التالي وفي الساعة الاولى صباحاً بالتلغراف الآتي :

اهنئ نفسي بعودك الى المانيا سالماً في هذه الاحوال · واني ارجوك ان تبذل كل ما في وسعك لمساعدتي · ان حرباً معيبة قد شهرت على شعب ضعيف فالاستياء في روسيا من جراء ذلك عظيم جداً واني لمشترك في ذلك الاستياء وارى ان ليس بامكاني ان اقاوم الضغط الذي يضغطه رجال مملكتي وساكون مضطراً الآن ان اتخذ الوسائل التي تؤدي الى الحرب لا محالة فارجوك واستحلفك بصداقتنا القديمة ان تبذل ما باستطاعتك لاقناع حليفتك بان تستعمل الرفق والتؤدة ولا تتمادى في خطة تجر الى اكبر مصيبة تنزل في اوربا وهي الحرب العامة نقولا

٣ فاجابه الامبراطور غليوم في الساعة الواحدة ونصف من صباح ٢٢ تموز بما يأتي :

جاء تلغرافك وانا على رأيك في وجوب حفظ السلم · الا انه لا يمكنني ان اعتبر الحرب التي شهرتها النمسا على الصرب حرباً معيبة وجائرة · لان دولة النمسا عرفت بالاختبار ان وعود السرب كثيراً ما تكون حبراً على ورق لا قيمة لها · وفي اعتقادي ان عمل النمسا الحربي يعد تجربة لاجبار سربيا على القيام بوفاء وعودها وعدم المطل بذلك ولا بد لي من القول ان وزارة النمسا والمجر لا تطمع بالحصول على ارض سربيا ولذلك فاني اقول انه يمكن لروسيا ان تقف وقفة المتفرج على هذه الحرب من غير ان تثير في اوروبا حرباً عامة لم يحدث مثلها قط في الاجيال الغابرة · انا ارى ان الوفاق بين حكومتك وحكومة فيانا ممكناً وسيقابل بارتياح ولا تتأخر حكومتي عن المساعدة للوصول

الى ذلك الاتفاق غير ان الاستعدادات الحربية التي نراها في بلادك ربما اعتبرتها النمسا موجهة ضدها فلا يعود لنا من سبيل لاتقاء تلك الكارثة المفجعة التي ربما ادت الى تكدير العلائق ايضاً بينك و بين هذا الوسيط الذي سألته ان يساعدك الى الوصول للاتفاق السلمي غليوم

٤ فاجابهُ قيصر روسيا في ٢٣ تموز (يوليو) بما ياتي

عهدت الى سفيري ان يوضح لحكومتك المخاطر والنتائج السيئة التي يمكن ان تنشأ عن تعبئة الجيوش . والان اكرر ماقلته ان النمسا قد عبأت قسماً من جيوشها ووجهته ضد سربيا ولذلك فاني اعبئ الجيوش الان لتقف عَلَى حدود النمسا والمجر لان المهمة الهائلة التي عهدت بها الي قد اصبحت الان مستحيلة فالمسؤولية الان واقعة عليك وفي يدك الحرب والسلام نقولا

٥ ثم بعث ايضاً قيصر روسيا في الساعة الثامنة من ذلك اليوم نفسهِ بالتلغراف الاتي الى امبراطور المانيا

اشكرك شكراً عظيماً عَلَى امراعك بالجواب وسارسل في هذا المساء (بونوشيف) مزوداً بالتعليمات . اما الاجراءات والتأهبات التي تشير اليها فكانت مقررة منذ خمسة ايام مضت لتكون جواباً عَلَى تاهب النمسا . ولي الامل بان هذه المصاعب لا تعرقل مساعيك التي ترمي اليها لحفظ السلام والتي تراني منتظراً نتيجتها بذاهب الصبر ونحن بحاجة الى نفوذك عَلَى دولة النمسا لكي نتفق معنا عَلَى صرف هذه الامور الحرجة نقولا

٦ ثم ورد ايضاً بعد ذلك بقليل تلغراف من قيصر روسيا عَلَى امبراطور المانيا وهو كما ياتي

اشكرك من كل قلبي عَلَى توسطك الذي يؤملني بحل سلمي و يستحيل علي

ان اوقف تاهباتي العسكرية لان الاستعدادات التي تتخذها النمسا اوجبت ذلك نحن لا نريد الحرب وما دامت المخابرات جارية بيننا و بين النمسا فان جيشي لا يقوم بعمل عدائي . اقسم لك علَى ذلك بشرفي واني واثق بنعمة الله واتمنى نفوذك ووساطتك بيني و بين النمسا لخير العالم والسلام الاوربي واني لاازال صديقك المخلص نقولا

٧ فاجابه الامبراطور غليوم حالا بما ياتي

بينما كنت على وشك الوصول الى الاتفاق بينك و بين حليفتي النمسا اذ رأيتك تحشد جنودك علَى الحدود النمسوية ومع تخوفي ان عملك هذا يجعل وساطتي عديمة الجدوى فقد استمريت في عملي . ولكني الان علمت من مصدر وثيق انك ارسلت جنودك علَى حدود بلادي فالمسؤولية التي علي بحفظ بلادي تضطرني ان اقابل المثل بالمثل . قد وصلت الى غاية مايصل اليه المرء في سبيل الاتفاق والوئام واني انتصل من تبعة الكارثة التي ستهبط علَى العالم المتمدن . لا يزال في امكانك ان تتقي تلك الكارثة اذ لا يوجد من يناوئ شرف روسيا . وكان في استطاعتك ان تنظر نتيجة مابذله من المساعي في تاييد السلم ولقد كنت حافظ جهدي بكل امانة علَى تلك الصداقة الثمينة الكائنة بين بلادك و بلادي . تلك الصداقة التي اقسمت ان احافظ عليها عند ما لفظ جدي نفسهُ الاخير . فسلام اوربا الان بين يديك . وفي امكانك المحافظة عليه اذا اردت ان توقف التأهبات الحربية التي تتخذها حكومتك ضد النمسا والمجر والمانيا (غليوم)

٨ رسالة الملك جورج الى قيصر روسيا

ارسل السر ادورد غراي وزير خارجية انكلترا الى السفير في بطرسبرج عن لسان الملك جورج في اول يوم من شهر آب (اغسطس) سنة ١٩١٤ يقول

قم حالاً واطلب مقابلة القيصر وقدم له الرسالة الآتية كخطاب خاص ·
وهذا هو نص الخطاب

«ان حكومتي تلقت الرسالة التالية من الحكومة الالمانية في ٢٩ تموز (يوليو) وهي :— « طلب امبراطور روسيا الى امبراطور الالمان توسطهُ بين النمسا وروسيا فاجاب غليوم بالقبول وباشر توسطهُ في فيانا وابلغ القيصر ذلك تلغرافياً ولكن روسيا شرعت تعبيُّ جيوشها وتحشدها عَلَى حدود النمسا قبل انتظار نتيجة التوسط · فابرق الامبراطور غليوم الى القيصر يعلمهُ ان عمل روسيا هذا يعرقل مساعي توسطه بين الدولتين وطلب منه ايقاف الحركات العسكرية فلم يعبأ بطلبهِ عَلَى ان الامبراطور غليوم استمر عَلَى توسطهِ وبذل اقصى جهدهِ في مساعي السلم وهو كل ما يتمكن من عملهِ في الاحوال الحاضرة ولا سيما ان احدى الدولتين حليفتهُ — وبينما كانت المساعي السلمية جارية في فيانا طبق المرغوب اذ زحفت روسيا بجيوشها عَلَى حدود النمسا كما اعلمنا سفيرنا في بطرسبرج ولذلك احبطت هذه الحركة الحربية توسطنا وقد حسبناها موجهة ضدنا وعليه فلا يسعنا الوقوف مكتوفي الايدي تجاه هذه الحالة · ولذلك ابلغنا روسيا انه اذا لم توقف تعبئة جيوشها ضد النمسا والمانيا باثنتي عشرة ساعة فاننا نضطر لتعبئة الجيوش السريعة وهذا العمل معناه الحرب · · ثم سألنا فرنسا عما اذا كانت تقف عَلَى الحياد تجاه الحرب الروسية الالمانية»

هذا ما جاء في رسالة الحكومة الالمانية وعليه فان حكومتي البريطانية وانا نقدر الاحوال الجسيمة والاضرار الفادحة التي تقع عَلَى العالم كله من جراء هذه الحرب كما تقدرونها انتم وحكومتكم فاذا رأيتم بوسعي عمل شيء ما لاستئناف المفاوضات وازالة سوء التفاهم بينكم فانا مستعد لذلك حفظاً للسلام (بجورج)

٩ فارسل قيصر روسيا الى ملك الانكليز ما يأتي :

اني بكل ارتياح اجيبكم على طلبكم لولا تقديم سفير المانيا انذاراً لحكومتي باعلان الحرب بعد ظهر اليوم ولا اخفي عنكم اننا بالرغم عن مذكرة النمسا وانذارات المانيا قد بذلنا ما في وسعنا لايجاد حل سلمي ولكن سوء النية باد من جراء اعمال النمسا التي تريد ضرب السرب وضمها اليها وذلك مما يخل بالتوازن وبالقوى البلقانية وهذا التوازن ضروري لصالح ممالكتي طالما رفضت المانيا والنمسا اقتراحكم[1] وطلباتنا ولم تلتفت الى اقوالنا الا بعد اعلان النمسا الحرب على السرب ولذلك اضطرني الامر الى تعبئة جزئية غير ان اركان حربي اقنعوني بضرورة التعبئة التامة بالنظر الى تعبئة الالمان السريعة ازاء البعثة الروسية

اما والحرب قد اعلنت فاملي وطيد وعظيم جداً بان حكومتكم لا تتردد عن عضد روسيا وفرنسا والله يحميكم ويباركم نقولا

١٠ كتاب قداسة البابا[2] الى امبراطور النمسا يلح عليه بعدم اعلان الحرب

« يا ولدي كنت امبراطوراً عندما كنت انا قسيساً صغيراً في مدرسة البندقية وانت اليوم اخي في السن ومدعو مثلي الى امام القاضي الاعلى وحولك عصبة لا هم لها الا شؤون الدنيا تريد الحرب . ولكن هذه الحرب تكون مقدمة لغمر اوربا بالدم . فاذكر ايها الامبراطور العظيم ان لك تاجاً آخر يطلب النجاة وهو تاج شعرك الابيض فلا تدنسه بلطخ الدماء . ثم من ضمن لك الحياة

---

(١) ربما يشير إلى إقتراح اللورد غراي وزير خارجية انكلترا بعقد مجلس تحكيمي للنظر في حل المسألة النمساوية السربية حلاً سلمياً

(١) ارسل قداسة البابا الى كاهن امبراطور النمسا الرقيم المذكور ليسلمه للامبراطور وقيل انهم لم يسمحوا للكاهن بمقابلته فاعيد الكتاب من فينا الى الفاتيكان مختوماً لم يفض

الى ان يحل عقالها – اذا ما مثلت امام الدائم الابدي عَلَى عتبة الجنة وقابلتك زوجتك الامبراطورة واخذت بيدك لتقف امام الديان العادل. فاعلم ان خطاياك تغفر بدمها ودم ابنك ودم ابن اخيك المقتولين هذا اذا كنت صفوحاً. لكنك اذا اعلنت الحرب يا ولدي فاخشى ان اقول ان دم اليصابات زوجتك ودم اولادك يضيع امام قتلى الحرب الطاحنة وامام الثكالى والارامل والايتام وانين الجرحى واخاف ان لا يكون لمصائبك قيمة تذكر امام مصائب اوروبا. فاعدل عن هذه الحرب يا ولدي. يا اخي. يا امبراطوري. واتركنا نموت بسلام وقل للذين يريدون اعلانها. اعلنوها بعدي. فان زوجتي وولدي يناديانني من القبر»

هذه مراسلات بعض العظماء التي سبقت اعلان الحرب العامة ومنها يظهر شدة خوف الملوك والرؤساء من انفجار ذلك البركان. الا ان التخوف والحذر لم يستطع ايقاف ذلك اللهيب لان عوامل كثيرة كانت تسعى في اعداد وقود تلك النار قصد التوصل الى مآرب نفسانية ومنافع اقتصادية

مر عَلَى دول اوربا سنين عديدة وكل منهن واقفة لمناظرتها بالمرصاد. كانوا يحشدون الجيوش ويعدون المعدات بدعوى المحافظة عَلَى السلام العام. ولم يزل ساسة العالم يتفننون في الدهاء ويظهرون غير ما يبطنون حتى قام برنسب ذلك الفتى السربي فاشعل الثقاب الاول بقتله فرنسيس فرديناند ولي عهد النمسا فصادف ثقابهُ هذا وقوداً صالحة فامتد اللهيب واي امتداد فاستولى الرعب عَلَى الكرة الارضية وظهرت المطامع الاشعبية مجسمة بويلات ولعنات انقضت على البشرية ولقد صدق المثل العامي ان (الخصام لم يكن عَلَى رمانة ولكن القلوب ملآنة)

مجمل حوادث الشهر الاول

والآن نترك اسباب الحرب الاساسية جانباً ونواصل ذكر الحوادث التاريخية — ففي ٧ آب (اغسطس) سنة ١٩١٤ شهر الجبل الاسود الحرب على النمسا وفي ٨ منهُ اعلن الحرب على المانيا — وفي ١٠ و١٢ منهُ شهرت كل من فرنسا وبريطانيا الحرب على النمسا والمجر — وفي ٢٣ منهُ اعلنت اليابان الحرب على المانيا واغارت على مستعمراتها (كياوتشو) في بلاد الصين

فانت ترى انهُ بين ٢٨ تموز (يوليو) سنة ١٩١٤ و بين ٢٣ آب (اغسطس). اي في مدة تقل عن شهر اشتبك في الحرب تسع من دول العالم — المانيا والنمسا من جانب — وانكلترا وروسيا وفرنسا واليابان و بلجكا وسربيا والجبل الاسود من جانب آخر. اما الدول الباقيه فوقفت على حيادٍ مسلح اي كل منهن عبأت جيوشها واعدت معداتها تتأهب لنكبات الزمان وطوارئ الحدثان

اعظم حرب في التاريخ
وكيف مرّت حوادثها

سنة ١٩١٤ م

شبّت شعلة هذه الحرب في اوائل آب (اغسطس) فلم يكن باقياً من السنة سوى خمسة اشهر ولكن مع قصر هذه المدة فان المواقع كانت هائلة لان كل فريقٍ من المتحاربين كان يحاول التفوق عَلَى خصمهِ ليتمكن من سحقه بسرعة. وكانت الخطط الحربية مرسومة في عقول القواد فلما نفخ في صور القتال اندفعت الجيوش المدربة بعضها عَلَى بعض بشدة وحماسة ؛ فاستولت المخاوف عَلَى نفوس الناس عموماً واضطربت علائق البشر الاقتصادية في العالم واي اضطراب

ولا يخفى ان حوادث هذه الحرب قسمان عمومية وخصوصية. اما العمومية فهي التي لم تختص بمكانٍ واحد بل كانت علاقتها بالعالم اجمع. كالمواقع العظمى التي جرت في الساحات الكبرى. فهذه يمكن لكل مؤرخ ان يستقي اخبارها من مصادرها الرسمية ومن الجرائد والمؤلفات المشهورة

واما الحوادث الخصوصية فهي التي اختصت باماكن معينة واثرت عَلَى اشخاصٍ وجماعات دون سواهم. مثاله ان سورية لم تكن ساحة حرب عامة ولكن جرت فيها امور خاصة تسببت عن الحرب فاثرت في اهلها عَلَى اختلاف طبقاتهم اذ كانت تقع يومياً تحت الابصار وتلمس بالايدي

وما يقال عن سورية من هذا القبيل يُقال عن كل بلادٍ فان كلاً منها اثّرت عليها الحرب العامّة وان يكن هذا التأثير عَلَى درجات متفاوته فكانك بالعالم امام لهيب من النار فالبعض احترقت اثوابهم والبعض جلودهم. والبعض

ذاب لحمهم وشحمهم والبعض انسحقت عظامهم اي كل فريق أُصيبَ بالنسبة الى ابتعاده او اقترابهِ من ذلك البركان الذي اخذ يقذف بحممه عَلَى البشرية لعنات جهنمية فيحق اذاً لكل شخصٍ ان يسأل نفسهُ الاسئلة الآتية وهي : ما تأثير هذه الحرب عَلَى العالم ؟ ما تأثيرها عَلَى مملكتي ؟ ما تأثيرها عَلَى وطني . عَلَى بلدتي . عَلَى عائلتي . عَلَى نفسي

ومع ان مواد هذه الحرب كثيرة فليس من السهل كتابة تاريخٍ حقيقي لها لان التأثر من نكباتها يدعو الى التعرُّض والتطرف فتضيع الحقيقة ويفقد التاريخ قيمتهُ . وقد آثرت ان اجمل الحوادثَ الخصوصية من كل سنة ثم اردفها بالحوادث العمومية ليسهل الرجوع اليها عند اللزوم والله الملهم الى السداد

كيف سارت الحوادث اجمالاً في بلادنا

سنة ١٩١٤

لا يخفى ان الدول كانت بالنظر الى هذه الحرب قسمين . قسم دخل المعمعة منذ البداءة وقسم وقف عَلَى الحياد . ومن هذا الاخير الدولة العثمانية فانها اعلنت حيادها المسلَّح منذ البداءة . فاستدعت تعبئة عامة . واخذت سلطتها العسكرية تصادر البضائع والذخائر عَلَى انواعها باسلوب جديد لم تجرِ عليهِ في ما مضى من تاريخها . فاستولى الذعر عَلَى الاهلين وامتلأ لبنان بالفارين من الخدمة العسكرية ومن تكاليفها النقدية

وكان الفكر العام في العالم ان الحرب سحابة صيف عن قريب تنقشع وان ثوران هذه العاصفة لا بد من سكونه عاجلاً والذي دعا الى هذا الاعتقاد هو تخوُّف الناس من النكبات والشرور التي تتأتى عن اطالة الحرب فرغبوا في

اختصارها والانسان من طبعه تصديق الامور المستحبة لديه ولذلك اخذ كل واحد يغني عَلَى ليلاه ويقدر مدة الحرب عَلَى مشتهاه مستنداً عَلَى عظم التأهبات الدولية عَلَى حين ان الفريقين المتحاربين كانا عَلَى اتم استعداد فسحق احدهما الآخر لم يكن من المنات الهينات

تأثير اعلان الحرب عَلَى المعاملات

عندما انفجر بركان الحرب توقفت حركة الاعمال واندفع الناس عَلَى ابواب التجار والمصارف يطلبون ودائعهم المالية · فاعلنت الحكومة تأجيل الوفاء (الموراتوريوم) الاّ باقساط معينة بحيث (لا يموت الذئب ولا يفنى الغنم) ولكن كثيرين من ذئاب المطامع تمنعوا عن اداء ما فرضتهُ عليهم الحكومة من الاقساط لدائنيهم مخترعين لذلك اعذاراً ينكرها الضمير الحي فشق ذلك عَلَى الدائنين ولا سيما الذين جدوا وكدحوا في تجميع غروشهم البيضاء ليقابلوا بها الايام السوداء · فلما حلَّت الشدة رأى اولئك الدائنون ان مديونيهم يضنون عليهم بما يسد الرمق مع انهم يتمادون في البذخ والاسراف فتألَّمت نفوسهم وضاعت ثقتهم وضياع ثقة الناس بعضهم ببعض من اكبر الضربات عَلَى المجتمع البشري

سكان الشواطئ وخوفهم

لم يمرّ شهر عَلَى الحرب حتى اخذ الوجل يستولي عَلَى سكان الشواطئ السورية فشرع كثيرون من المسلمين يرسلون عيالهم الى المدن الداخلية فكنت ترى عند محطة بيروت مئات من النساء والاطفال منتظرين دورهم في القطار وكانت الحافلات تزدحم بالنازحين من الساحل الى الداخل وازدادت عدوى الخوف انتشاراً بين الاهلين فسهلت الحكومة العثمانية امر السفر بتعيينها قاطرات لنقل الفقراء مجاناً عَلَى ان هذا الامر زاد الناس وجلاً وقالوا لولا ان

الحكومة عالمة بامور مستقبلة لما سهلت للنازحين هذا التسهيل

اما المسيحيون من سكان الشواطئ فتربصوا في اماكنهم كانهم غير خائفين من العدو المقبل من جهة البحر · بل بعض مسيحي الداخل كانوا يقصدون الساحل · والخلاصة ان الخوف كان عاماً وكل فريق كان يهرب الى الجهة التي ظنّ ان له فيها الراحة والاطمئنان

كيف قضينا صيف سنة ١٩١٤ م

قضينا ذلك الصيف في (سوق الغرب) فكنا نطالع اخبار المتحاربين برمتها · لان اتخاذ الدولة العثمانية موقف الحياد · اطلق للجرائد حرية نقل الانباء · فكانت ترد علينا اخبار الفريقين فنستطيع الاهتداء بواسطتها الى الحقيقة او ما يقرب منها

وكان في لبنان يومئذٍ عدد من ادباء المصريين والسوريين فكنت اينما مررت ترى جماعات تتناظر — والسوريون والمصريون خاصتهم وعامتهم لهم المام في فن السياسة فيتكلمون كمن له سلطان من حيث معدات الدول البرية والبحرية والجوية · وكلٌ منهم يستطيع انتقاد خطط القواد واراء الساسة · فكنا نعين مقدرات الامم ومصير الممالك ونحن جالسون عَلَى بساط الراحة

الخلاصة ان حروبنا ذلك الصيف كانت (بالنظارات) لان (الموسى) لم تكن قد بلغت اللحى · — نعم توقفت الاعمال ولكن اسعار الحاجيات لم ترتفع وكان بيد الناس ذخائر وابواب البحر لم تزل مفتوحة لارسال النجدات المالية — وفصل الصيف بساطه واسع فاستطاع كثيرون ان يعتصموا في لبنان فراراً من الخدمة العسكرية ومن دفع البدلات النقدية لبينما يسكن ثوران ذلك العاصف والذي هوّن عَلَى الناس الصبر والاحتمال هو كما المعنا سابقاً حسن الرجاء بقرب

انتهاء الحرب · فآمنوا بسرعة مجيء الفرج بعد الضيق واعتقدوا بكسر قيود الاستعباد وتحطيم الاغلال · نعم كنا نطالع انباء الحرب ولكن مطالعتنا لها كان من قبيل مطالعة الروايات فلم نكن لنهتم كثيراً بما كنا نقرأه عن شدة المعارك في بلجكا وفرنسا وسربيا والنمسا وغيرها من الساحات التي كانت تتقاتل فيها ملايين الجنود من زهرة الشبان — ولا عن البوارج والغواصات التي كانت تتكافح عَلَى سطح الماء وتحت الماء فيشق بعضها بعضاً وتهوي الى اعماق اليم بما فيها من المال والرجال — ولا عن المدافع الضخمة التي كانت تقذف من فوهاتها القنابل عَلَى الحصون والمعاقل فتجاوبها هذه بالمثل فترتجف الارض من ذلك الدوي ويمتلئ الجو بالدخان واللمعان — ولا عن الطيارات السابحات في الفضاء التي كانت تلقي قذائفها الجهنمية عَلَى البشرية — ولا عن الغازات الخناقة التي كان يتقاذف بها جنود الدول المتمدنة — ولا ولا ... عن غير ذلك من الذرائع الشيطانية التي اخترعها الانسان المتهذب للفتك في اخيه الانسان —

فنحن الذين كنا بعيدين عن ميادين القتال لم نكن نتأثر كثيراً من اخبار الصحف ؛ ولذلك كنا نقضي اوقاتنا في المجادلات والمناضلات السياسية وكثيراً ما كانت تفضي بنا تلك المناظرات الى التمادي في الحدة ثم لا نلبث ان نعود الى رشدنا ونقول (فخار يكسر بعضهُ) غير عالمين ان دول الغرب اذا حطمت بعضها بعضاً لا نسلم نحن سكان الشرق من عواقب ذلك التحطيم

استعدادات الدولة العثمانية

قلنا ان تركيا اعلنت في ٢٨ تموز حيادها المسلَّح وفي ٢٩ منهُ بدأت بالحشد العام فكانت تجمع الجنود وتمرنها وترسلها الى جنوب سوريَّة · وكان الرأي العام ان تركيا اذا دخلت المعمعة فانما تدخلها عن جانب المانيا . وفي ٩ ايلول

اصدرت امراً بالغاء الامتيازات الاجنبيَّة وفي غرة تشرين الاول اقفلت (البوستات) واستولت عَلَى ما فيها من الرسائل فاستولى الخوف عَلَى الاجانب والوطنيين معاً واخذوا يحسبون الف حساب وطلبت الحكومة الانكليزية المصريَّة مستخدميها في سوريَّة قبل انتهاء اجازاتهم فساد اضطراب الافكار وشرع الناس يتساءلون عمَّا سيكون · وراجت سوق الاشاعات المكدرة واخذ كلٌ يؤلف عَلَى هواهُ

اما الكلية الامركانية فاعلنت انها مستعدة لقبول التلامذة في تشرين الاول وقد امَّها عددٌ ليس بقليل من الطلبة المصريين مِمَّا دلَّ عَلَى ان اهلهم لم يكونوا خائفين من دخول تركيا في الحرب وقد نزلنا من الجبل لاستئناف اعمالنا · مع ان معظم الصائفين ظلوا في لبنان يعللون انفسهم بقرب انفراج ازمة الحرب قبل فصل الشتاء

دخول تركيا في المعمعة

في اوائل الحرب هربت دارعتان المانيتان وهما (غوبن و برسلو) ودخلتا الدردنيل في ١١ آب ثم اعلنت تركيا انها اشترتهما من المانيا فاشتد ساعد الاسطول العثماني بهما واخذ يتجول في البحر الاسود · وفي ٢٩ تشرين الاول التقى الاسطول الروسي بالاسطول العثماني فتضاربا فأُعلنت الحرب بين روسيا وتركيا وكلٌ منهما ادعت عَلَى الثانية انها البادئة بالشر ومهما يكن فان المانيا حصلت بذلك عَلَى مرغوبها أَلا وهو ادخال تركيا عن جانبها وهو فوزٌ لسياستها عَلَى سياسة انكلترا وفرنسا · فان هاتين الدولتين مع ما بذلتاهُ من المال والرجال في سبيل المحافظة عَلَى كيان تركيا في الماضي لم تستطيعا الان عَلَى ادخالها بجانبهما ولا عَلَى ايقافها عن نصرة عدوهما لا بالترغيب ولا بالترهيب

فقلبت لها ظهر المجن مدعية انهما خزلتاها في نكباتها المتأخرة خلافاً لالمانيا التي عطفت عليها فالقى فتيان الترك مصيرهم بين ذراعيها معللين نفوسهم باحلام جميلة

ولا يجهلنّ عاقل ما كان لدخول تركيا في هذه الحرب من المنفعة لالمانيا ومن الضرر لاخصامها • وفي ٣١ تشرين الاول برح سفير روسيا الاستانة وفي اول تشرين الثاني تركها سفيرا انكلترا وفرنسا واصبحت تركيا بحالة حرب مع هذه الدول الثلاث •

السوريون عموماً ودخول تركيا

اما المسلمون في سوريّة فظهر عليهم الاستياء من دخول تركيا في المعمعة الكونية لانهم كانوا متشائمين يرون المستقبل مظلماً ففضلوا ان تبقى الدولة العثمانية عَلَى الحياد واقفة وقفة المتفرج — واما المسيحيون ولا سيما سكان الشواطئ البحرية فانهم خافوا وابتهجوا في وقتٍ واحد • اما خوفهم فنتج عن امكانية استمرار الحرب مدة طويلة وهم مكلفون بالخدمة العسكرية وباداء الضرائب الحربيّة مع تعرضهم لسوء المظنات وللشدائد والنكبات في سبيل دولة يودون من زمان التخلص من نيرها • اما ابتهاجهم فنجم عن بارقة امل وهو انهُ عَلَى فرض طالت مدة الحرب بسبب دخول تركيا فيها فهذا لا يمنع قرب انفراج الازمة عن سوريه لان شواطئها معرّضة للغزو ففي بضعة ايام تتوجه عليها الاساطيل وتحتلها قوات فرنسوية وانكليزية فيتحرر سكان الشواطئ عَلَى الاقل

ولم تكن هذه الفكرة فكرةً عاميّة فان خاصةَ الناس قالوا بها • فلما اصبحت تركيا بحالة حرب مع الحلفاء عين والي المدينة (بكر سامي بك) لجنةً لتسليم بيروت عَلَى طريقة قانونيّة — وادارة الكليّة الامركانية اخذت تستعد

لاستقبال اللاجئين اليها عند الاحتلال كما الجأتهم يوم حادثة التليان سنة ١٩١١

وفي ١١ تشرين الثاني اعلن السلطان العثماني (محمد رشاد) الجهاد المقدس بصفة انهُ امير المؤمنين في العالم

والظاهر ان المانيا كانت قد تواطأت مع فتيان الاتراك عَلَى هذا بغية ان دعوة الجهاد هذه تحرك العالم الاسلامي ضد حاكميه فيثور المسلمون عَلَى السلطة الانكليزية والفرنساوية فتنشأ قلاقل في اسيا وافريقيا تشغل هاتين الدولتين عن التفرغ لمناوأة المانيا · الا ان الحلفاء احتاطوا لهذا الامر فلم تؤثر دعوة الجهاد في مستعمراتهم كما كان منتظراً · والمسلمون في سوريا لم تحركهم هذه الدعوة لانهم حسبوها اصطناعية

قلنا انهُ عند دخول تركيا في الحرب اخذ سكان الشواطئ السوريَّة ينظرون الى جهة البحر متوقعين الفرج · وفي ١ كانون الاول اقبلت عَلَى ثغر بيروت البارجة الروسية (اسكولت) فاستبشر الناس وقالوا حانت الساعة واخذ اهل المدينة يتراكضون الى جهة لبنان وهربت هيئة الحكومة بسجلاتها الى صوفر · غير ان الدارعة المذكورة مرَّت من امام بيروت متجهة الى طرابلس ثم رجعت ادراجها دون ان تفعل شيئًا يُذكر · وقد زعم البعض انها انما اتت للاستكشاف وانهُ لا بُدَّ من قدوم اسطول بعدها تصحبهُ النقالات الحاملة جنود الاحتلال · ثم اخذت دوارع الحلفاء تتردد عَلَى الشاطئ وبدأ رجاء السوريين بدنو النجاة يتناقص لانهم ادركوا ان تلك المدرعات انما كانت تأتي لحصر الشاطئ ولمنع مجيء الاقوات اليهِ

وكان على السوريين ان يصبروا عَلَى حوادث الايام ونكبات الزمان الى ان يقضي الله امراً كان مفعولاً

واقبل الشتاء واشتدَّ البرد في الجبال وهبط اللاجئون اليها ودفع بعضهم البدلات النقدية وسلَّم البعض الآخر نفسهُ للسوقيات العسكرية . وبدأت عيال كثيرة تشعر بالضيق بسبب وقوف حركة الاعمال واخذ عدد المتسولين يتكاثر . وكانت الرحمة لا تزال في قلوب كثيرين فمدوا ايديهم لمساعدة البائسين فلم تنتشر المجاعة

ارسال قوَّة عثمانية لاحتلال لبنان وقدوم جمال باشا

في اواخر تشرين الثاني ارسلت القيادة التركية من الشام فرقة لاحتلال جبل لبنان فداهمتها عاصفة بين زحلة والشوير فمات منها عدد يُذكر . وحينئذ الحكومة جمال باشا ناظر البحرية مندوباً مطلقاً في سورية . وفي ٥ كانون الاول وصل الى دمشق واستلم قيادة الجيش الرابع . وتشكل مجلس عرفي في عاليه لمحاكمة اهل الشبهات

مرَّ عَلَى بداءة الحرب اكثر من خمسة اشهر اي من اواخر تموز الى اواخر كانون الاول سنة ١٩١٤ والاحوال تتزايد شدَّة . وكما ذكرنا لمحة خصوصيَّة عن احوال بلادنا في هذه المدة لا بُدَّ لنا من ذكر لمحة عمومية عن احوال العالم اجمالاً

❋ لمحةٌ من سير حوادث الحرب في العالم عموماً سنة ١٩١٤ م ❋

لم يرَ في تاريخ الانسان حربٌ تعددت فيها الساحات كتعددها في هذه الحرب الكونيَّة والان نأتي عَلَى اجمال حوادث كلٍّ منها

ساحة اوروبا الغربيَّة

وهي ساحة البلجيك وشمالي فرنسا ويمتد طول خط القتال فيها نحو ٤٥٠ كيلو متراً اي من شواطئ البحر الشمالي الى سويسره فعند بداءة الحرب

دخلت الجيوش الالمانية لكسمبرج وهاجمت بلجكا وبعد عراك شديد استولت في ٧ آب (اغسطس) عَلَى (لياج) ثم عَلَى (نامور) وفي العشرين منهُ اخذت العاصمة (بروكسل) وفي ٢٥ منهُ ضربت (لوفان) ٠ ففي نحو ثلاثة اسابيع تمكن الجيش الالماني بعد ضحايا عظيمة من اختراق بلجكا واشرف عَلَى شمالي فرنسا و بدأ في ٢٨ آب بمعركة المارن الاولى التي استمرت الى ٧ ايلول وهي من اعظم معارك هذه الحرب ٠ وهنا نورد عنها خلاصة من مصادر موثوق بها

كان الانكليز قد ارسلوا مئة الف جندي تحت قيادة السر جون فرنش في ١٦ آب (اوغسطس) لانجاد فرنسا فلما انتهى الجيش الالماني من اختراق بلجكا توجَّه بقوتهِ في ٢٨ آب الى سحق الجيش الفرنساوي الانكليزي وحاول الالتفاف حول جناحهِ الايسر فتمكنت جيوش الحلفاء من التقهقر بانتظام امام القوات الالمانية ٠ ولما بلغ الجيش الالماني نقطاً لا تبعد عن باريس سوى ثلاثة ايام ظن القائد (فون مولتن) انهُ اضعف جناح الفرنساويين الايسر الى درجةٍ لا يستطيع معها المهاجمة فانقض بتسع مئة الف مقاتل ومن ورائهِ جيش احتياطي عظيم عَلَى قلب الجيش الفرنساوي ناوياً خرقهُ فادركت القيادة الفرنساوية الخطر المحدق فامرت مساء ٥ ايلول الجناح الايسر بالكف عن التقهقر وبالارتداد عَلَى جناح الالمان الايمن ٠ وكان منطوق امر جوفر القائد العام الى جميع القواد الفرنساويين « حانت الساعه للتقدم الى الامام مهما كانت التضحية الموت وانتم ثابتون خيرٌ من التراجع » فتمكن جناح الفرنساويين الايسر من رد جناح الالمان الايمن لان الالمان كانوا قد وجهوا معظم قوتهم الى قلب الجيش الفرنساوي فاصبح الجيش الالماني بين شفرتي مقص فالتزم ان يتراجع امام اعدائهِ حتى الثاني عشر من ايلول فتكون موقعة المارن الاولى قد استمرت من

٢٨ آب الى ١٢ ايلول اي نحو اسبوعين · في الاسبوع الاول كان الجيش الفرنساوي الانكليزي متراجعاً امام الجيش الالماني وفي الاسبوع الثاني كان الفرنساويون والانكليز مهاجمين والالمان متراجعين وقد اظهر كل فريق من الجيشين المحاربين في هذه المعركة من ضروب التفنن في هجومهِ وتراجعهِ ما لم يذكرهُ تاريخ · ولقد روي عن القائد الالماني فن كلوك (Von Kluck) ان الحيرة اخذت منهُ كل مأخذ عندما بلغهُ انضمام حامية باريس الى جناح الفرنساويين الايسر وقال انهُ ما خطر لهُ ان القائد الفرنساوي غلياني (Galliani) يخاطر كل هذه المخاطرة ويخرج بحامية باريس الى بعد اربعين ميلاً عن استحكاماتها

اما الالمان فكانوا قد حفروا خنادق في شمالي فرنسا وثبتوا اقدامهم فيها ومن ثم وقف الجيشان مقابل بعضهما يتناضلان · وبعد ارتداد الالمان من نهر المارن الى الرين واعتصامهم وراء استحكاماتهم في شمالي فرنسا مرّ عدة شهور والحرب في الساحة الغربية سجالاً نظراً لما كان يظهرهُ قواد الجانبين من ضروب التفنن والدهاء · تعددت في هذه الساحة المناوشات ولكن ضحايا المناوشة فيها كانت تفوق ضحايا معركةٍ كبيرة من حروب السابقين · وذلك بالنظر لوسائل التدمير والهلاك التي لم تكن معروفة عند الاقدمين

ثم ان الالمان عند اختراقهم بلجكا تركوا وراءهم حصون انفرس محاطة بقوات منهم فلما ارتدوا في معركة المارن عادوا اليها واسقطوها بمدافعهم الكبيرة عيار (٤٢) وذلك في ٩ تشرين الاول بعد ان ظن كثيرون ان تلك الحصون امنع من عقاب الجو ·

الساحة الشرقيَّة في اوروبا

هي الساحة الروسية النمساوية الالمانية طولها نحو ٢٥٦٨ كيلو متراً · فان الروس اشتدوا فيها عَلَى النمساويين وزحفوا عَلَى لمبرغ عاصمة غاليسيا واستولوا عليها في ٢ ايلول ويقول العارفون ان اسراع الروس في استعدادهم وتمكنهم من اسقاط لمبرغ واسرهم فيها نحو ثلاثمئه الف من النمساويين كان من الاسباب التي مكنت الحلفاء من صد تيار الالمان عن باريس لان هؤلاء التزموا عند سقوط لمبرغ الى ارسال عدة فيالق من الساحة الغربية لنجدة حليفتهم ولكل حادث من الدهر اسبابٌ ومسببات

ثم عبر الروس مضايق جبال الكارابات واستولوا عَلَى تزرنوفتش وياروسلاف وطوقوا برزميسل بجيش عظيم · ولم يقتصروا على مهاجمة النمسا بل هاجموا الالمان من الشمال فعبروا حدود بروسيا الشرقية وتهددوا مدينة كنجسبرج فصدهم عنها هندنبرغ في ١٦ ايلول ثم ارتدوا عليهِ وارجعوهُ الى بروسيه الشرقية وكانت المواقع في هذه الساحة بين الروس والالمان مواقع كرٍّ وفرٍّ

سير الحوادث في ساحة الشرق الاقصى

اعلنت اليابان الحرب عَلَى المانيا في ٢٣ آب وارسلت اسطولها لمهاجمة مستعمرتها الصينية كياوتشو واستولت عَلَى (تسنتو) في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر)

سير الحوادث في ساحة الشرق الادنى

لما دخلت تركيا الحرب ضد انكلترا سيرت هذه جيشاً من الهند في اوائل تشرين الثاني (نوفمبر) فبلغ العراق في ١٤ منهُ ويقال ان هذا الجيش كان عددهُ (١٥) الف مقاتل معظمهم من الهنود فاخذوا يتقدمون بدون

مقاومة تذكر واحتلوا البصره في ٢١ منهُ والقرنه في ٩ كانون الاول (دسمبر). واخذوا يتقدمون في زحفهم صاعدين عَلَى جوانب الفرات

سير الحوادث في ساحة البلقان

ثبتت شعلة نار الحرب الكونيَّة في هذه الساحة فاخذ النمساويون يزحفون عَلَى سربيا وفي ٢ كانون الاول استولوا عَلَى عاصمتها بلغراد ثم في ١٤ منهُ اخلوها

ساحة افريقيا

في ٢٧ ايلول (سبتمبر) غزا الجنرال بوثا مستعمرة المانيا في الجنوب الغربي من افريقيا · وفي ٢٨ سبتمبر اغار جيش فرنساوي انكليزي عَلَى مستعمرة الكمارون الالمانية — وفي ١٧ كانون الثاني اعلنت بريطانيا العظمى حمايتها عَلَى مصر ونادت بالبرنس حسين كامل سلطاناً وكانت عند اعلانها الحرب عَلَى تركيا اعلنت ضم جزيرة قبرص

معارك البحار

كانت ساحات المعارك البحرية متعددة · ففي ٢٨ آب اغرق الاسطول الانكليزي في البحر الشمالي بالقرب من Heliogland ثلاثة طرادات المانية ومدمرتين — وفي ١ تشرين الثاني اغرق الاسطول الالماني بقرب الشيلي طرادين انكليزيين وهما (Monmouth) و (Good Hope) — وفي ٩ منهُ اغرق الطراد الاوسترالي (سدني) الطراد الالماني (امدن) في البحر الهندي بعد ان ظل هذا شهرين جائلاً في البحار يغرق ما يصادفهُ من مراكب التجارة وفي ٨ كانون الاول حدثت موقعة بين الاسطولين الانكليزي والالماني عند جزائر فوكلند فدارت فيهِ الدائرة عَلَى الاسطول الالماني فخسر ثلاثة طرادات

— بلغنا نهاية سنة ١٩١٤ وعدد الدول المشتبكة في الحرب عشر —

اعظم حرب في التاريخ

وكيف مرّت حوادثها

سنة ١٩١٥ م

سير الحوادث في بلادنا

مرّ معنا في حوادث سنة ١٩١٤ ان الدولة العثمانية الغت امتيازات الاجانب وفي غرّة تشرين الاول اقفلت مراكزهم البريدية وحجزت على ما كان فيها من الرسائل والرقم وفي ٢٩ تشرين الثاني اي عند دخولها في المعمعة الكونية عينت لجنة لمعاينة تلك المكاتيب ثم حجزت اوراق قنصليات الدول المعادية . وكانت قد شكلت محكمة عسكرية في عاليه فاخذت تحول اليها من تلك الرسائل والاوراق كل ما لهُ علاقة بها فلما دخلت سنة ١٩١٥ كان كل شيء مجهزاً امام المحكمة المذكورة فاخذت تطلب ارباب تلك الرقم من اطراف لبنان وسورية فاستولى الرعب على الناس

وكان طلب المتهمين يقع غالباً ليلاً فتحضر قوّة عسكرية وتذعر اهل البيت بتفتيشهِ وضبط ما فيهِ من الاوراق وسوق المتهم

وكثيراً ما كانت تجد بين اوراق المفتشين ما لهُ علاقة بغيرهم اي ان جريرة واحد كان يجرُّ بها عدد الى المحكمة العرفية . على ان كثيرين كانوا بعد اخذ افاداتهم يبرأون ولكنهم قلَّما كانوا ينجون من عواقب الخوف والتعب . اعرف شخصاً فُتش منزلهُ وكان بعض اهل قريتهِ الفوا جمعية يجمعون بها دراهم لاصلاح عين ماء القرية فوجدت اسماء اعضاء الجمعية بين الاوراق فارتابت بهم الحكومة المحلية فالقي عليهم القبض وارسلوا الى الديوان العرفي متحملين

النفقات والمشقات والمسافة بين قريتهم وعاليه نحو اربعة ايام وبعد استجوابهم ظهر للمجلس العرفي براءتهم فأُطلق سبيلهم ولكن بعضهم تأثر من هذا الحادث فاعتلّ جسمهُ وقضي عليهِ

محتويات الرقم التي لاجلها حوكم الناس

كانت الرقم التي بسببها سيق البعض الى المحكمة العرفية قسمين . منها ما احتوى مخابرات سياسية اما بين وطني وآخر في بلاد المهجر او بين وطني واجنبي كالاوراق التي وجدت في بعض القنصليات وبالطبع كان الذنب الأخير في نظر الحكومة العثمانية اشد من الاول لانها حسبت امثال هذه المفاوضات من قبيل تسليم البلاد الأجنبي

اما القسم الثاني من تلك الرقم وهو الاعظم فانهُ لم يحتوِ مخابرات سياسية بل كان محشواً بالمثالب والمطاعن عَلَى الاتراك بكلمات بذئية تترفع عنها التربية العالية . فان كثيرين من المتغربين كتبوا في اوائل الحرب لأهاليهم واصدقائهم في سورية رسائل يسبون بالحكومة العثمانية ويظهرون تمنياتهم ورغائبهم في زوالها . فامثال هذه الرقم سمتها الحكومة تمنيات ردئية واخذت تحاكم المرسلة اليهم . ولو درى الذين كتبوها انها ستسبب لاهلهم واصدقائهم السجن والابعاد والتغريب والعذاب والموت لما كانوا فعلوا ذلك . وما احسن الحكمة القائلة سلامة الانسان في حفظ اللسان .

بين تلك الرقم رسائل لا يُعذر اصحابها

على انّا اذا عذرنا الذين حوكموا بسبب المخابرات السياسية بقولنا انهم يئسوا من اصلاح الاتراك فرأوا ان افضل وسيلة لبلادهم هو وضعها تحت سيادة اجنبية . واذا عذرنا الذين ارسلوا لاهلهم واصدقائهم الرسائل المحشوّة بشتائم

وطعن بالدولة العثمانية بقولنا ان الذين كتبوها انما كتبوها عن سلامة نية وقصر نظر في العواقب · فهنالك فريق لا يمكن ان يُعذروا على رسائلهم لان الدافع اليها كان سوء النيَّة · فان بعض السوريين في المهجر استغنموا المشاكل والاضطرابات يومئذٍ لصب جامات انتقامهم عَلَى اخوانهم في الوطن فأرسلوا اليهم رسائل مزورة يحاولون القضاء عليهم · ومن امثلة هذه الرسائل ان الكاتب كان يقول

— حضرة فلان — اخذنا كتابكم تاريخ كذا · الذي فيهِ تخبرونا انكم الفتم جمعية اسمها كذا · لمقاومة الاتراك الحكام الظلام · اما نحن فنحبذ عملكم ونسعى في جمع اعانات لكم فثابروا عَلَى خطتكم الشريفة الخ — اما التواقيع فكانت مستعارة مثل صديقكم فلان او ابن اختكم · او سكرتير الجمعية الفلانية

ولولا اغضاء بعض المراقبين شفقة عَلَى ابناء وطنهم وذكاء بعض اعضاء المجلس العرفي ووجدانهم الحيّ لمات كثيرون بسبب هذه السفالات الاخلاقية

الهزال الذي ظهر عَلَى الناس عموماً

من الاقاصيص ان ملكاً سلَّم رجلاً خروفاً وزنهُ كذا وامرهُ ان يعلفهُ بشرط ان لا تحصل زيادة في وزنهِ · فاحتار الرجل كيف يطبق بين الامرين فاشار عليهِ احد الحكماء ان يقتني ذئباً وفي آخر الاسبوع يريهِ الخروف فيخسر الخروف ما يكون قد كسبهُ من السمن في مدة اسبوع لان الخوف يؤثر عليهِ — هذا ما جرى في بلادنا فان الاشباح المخيفة التي كان يتوالى ظهورها في ايام الحرب اقلقت راحة الناس واكثرت هواجسهم وحرمتهم لذة النوم واثرت عَلَى عقولهم واجسامهم فتغيرت سحنهم واصفرت الوانهم وخفت اوزانهم · وهذا لم يظهر عَلَى الفقراء او متوسطي الحال فقط · بل تناول الاغنياء انفسهم لانه

كان لكل طبقة نوع من الاهتمامات والمخاوف

على انهُ مع كل ما اصاب الناس من الاهوال والاهتمامات فالمجاعة في سنة ١٩١٥ لم تستحكم حلقاتها وسبب ذلك ان الاسعار الغذائية لم يكن ارتفاعها فاحشاً . نعم توقفت اشغال العمال وكثر عدد المتسولين ولكن كان بايدي الموسرين فضلات مال ساعدوا بها المعسرين وكانت المراكب التليانية تتردد على الشواطئ السورية فيستأنس بها الناس والنجدات المالية لم تنقطع من السوريين في المهجر عن اهلهم في الوطن

الزحف على ترعة السويس

اما ساحات الحرب فكان اقربها الى سورية جبهة سيناء . فان جمال باشا كان قد اذاع بلاغاً في اوائل كانون الاول سنة ١٩١٤ يستنهض الامة للزحف على مصر وفي ١٥ منهُ وصل الى دمشق اللواء النبوي الشريف

وكان على السوريين ان يقدموا لوازم تلك الحملة من مالٍ ورجالٍ وجمال وذخائر ومآكل والبسة واوعية . ومرّ كانون الثاني سنة ١٩١٥ ودخلنا في شهر شباط . وفي اليوم الثاني منهُ وصل نبأ ان الجيش العثماني قطع الترعة فضجّ الناس وبدأت العامة في مظاهرات الانتصار ولكن قبل تكامل الافراح ورد نبأ آخر من جمال باشا نشرتهُ الجرائد المحلية مآلهُ انهُ عند محاولة العثمانيين قطع الترعة فاجأهم الانكليز بقوة من الدوارع والاتوموبيلات المصفحة بالفولاذ وان الجيش العثماني ارتد ولم يترك للعدو الاّ جثث القتلى

والحقيقة ان الاقدام على ايصال جيش مهما كان صغيراً الى الترعة وتحمل مشقات قطع بريّة سيناء تلك الصحراء المخيفة . كل ذلك يعد من الحوادث التاريخية . وهل كان تسيير تلك الحملة من باب الهوس او الجنون ام كان هناك

غاية ينشدها الاتراك والالمان . لا شك ان تلك الحملة التي بلغت الترعة كان القصد منها ايقاظ المصريين الى الثورة ضد الانكليز ولكن انكلترا احتاطت للامر ولم تمكن اعداءها من ازعاجها

عَلَى ان الاتراك والالمان رجعوا يمدون سكة في قلب صحراء سيناء مارةً في بئر سبع تهديداً للانكليز وقد ساقوا الى العمل فيهِ الوفاً من كهول السوريين والغير القادرين عَلَى حمل السلاح فكانت تلك الصحراء مقبرة لكثيرين من اولئك المساكين الذين اماتهم التعب والحر وشظف العيش وقلة الطعام . فكم ترمَّل من نساء سورية وكم تيتم من اطفالها بسبب تلك الحملة .

مهاجمة الدردنيل وامل السوريين

في ١٩ شباط سنة ١٩١٥ باشر الانكليز والفرنساويون مهاجمة مضيق الدردنيل فكان الفرنساويون يضربون بمدافعهم البحرية القلاع التي عَلَى الشاطئ الاسيوي والانكليز يضربون التي عَلَى الشاطئ الاوربي . واخذت امال السوريين تحوم حول ذلك المضيق لعلَّ فرجهم يأتي من الاستيلاء عليهِ فيتمكن الحلفاء من دخول الاستانة ويسلّم الاتراك بما يُملي عليهم من شروط الصلح المنفرد ويتصل الروس بحلفائهم فترتخي يد الالمان وينقطع رجاؤُهم من مهاجمتهم الانكليز عن طريق مصر ومن جلب الذخائر من الشرق . هذه كانت احلام السوريين ولا بدع فقد كانت الثقة عظيمة باسطولي انكلترا وفرنسا . احتدمت الموقعة فسقطت عدة حصون من الدردنيل واغرقت عدة دوارع للحلفاء . ولندع الان المعركة محتدمة ونلتفت الى ما كان يجري في بلادنا

في ١٣ اذار حل اوهانس باشا مجلس ادارة لبنان المذكور وقد اظهر متصرف الجبل المذكور استياءه من المداخلة في اعماله ولكن احتجاجاته لم تجده نفعاً فان الاوامر العسكرية كانت فوق كل قوة ادارية . وفي ٨ نيسان صدرت الاوامر بهدم اسواق بيروت فشرع الوالي بكر سامي بك بذلك .
وفي ١١ نيسان ظهر الجراد بكثرة . وكانت العسكرية قبل ذلك قد امرت بقطع الاشجار وقوداً للقطار . واخذت الايام تزداد اكفهراراً متلبدة بسحب الارزاء والنكبات واصبحت البلاد والعباد في حالة يصدق فيها قول الشاعر

رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبالِ
فصرت اذا اصابتني سهامٌ تكسّرت النصال على النصالِ

عود الى الدردنيل

ولنرجع الآن الى الدردنيل الذي عليه عقدت الآمال فقد مر على الاساطيل الحلفاء نحو شهرين وهي تقذف بقنابلها على معاقله فهدمت كما ذكرنا بعضها ولكنها خسرت عدداً من دوارعها بالالغام وبمدافع الحصون التي كان يدير حركتها الالمان .

وكانت وزارة فنزيلوس قد اتفقت مع الحلفاء على امدادهم بجيش يوناني ينزلونه في شبه جزيرة غليبولي فلما اتى الوقت نهض حزب ملك اليونان واحبط هذه الفكرة واسقط وزارة فنزيلوس . وهذا ما دعا الحلفاء الى اعداد جيش منهم فانزلوه في غليبولي في ٢٦ نيسان «ابريل» واخذوا يهاجمون قلاع الدردنيل من جهتي البر والبحر . على ان الاتراك استقتلوا في المدافعة عن حوضهم وكثرت الخسائر من الجانبين . وهنا ادرك السوريون ان الاستيلاء

عَلَى الدردنيل ودخول عاصمة الاتراك ليس بلعقة عسل · بل من دونه هو الرماح وكل ليث كاسر

دخول ايطاليا في المعمعة

وقد كانت انكلترا في هذه المدة تسعى بواسطة السياسي الداهية السير ادورد غراي لجر ايطاليا الى حزبها · وما لبثت حتى بدت تباشير فوز السياسة الانكليزية · فايطاليا حليفة المانيا والنمسا لم تكتف بالوقوف عَلَى الحياد بل اعلنت في ٢ ايار « مايو » سنة ١٩١٥ انسحابها من المحالفة الثلاثية ثم قدمت لائحة تطالب فيها من النمسا المطالب الاتية

١ — اعطاءها اعطاء مطلقاً مقاطعة « ترانت » ومن ضمنها « بوزن » في التيرول

٢ — تصحيح حدود « سوزو » عَلَى ان تدخل فيها غورتز و غراتاكي و مونفالكو

٣ — جعل « تريستا » وما والاها جمهورية مستقلة

٤ — الاعتراف بسيادة ايطاليا المطلقة عَلَى فالونا وما يتبعها من البلاد وضمنها مدينة « سيزا كو »

٥ — ان تتخلى النمسا تخلياً تاماً عن البانيا

ولم يكن بالامر السهل عَلَى النمسا ان تسلِّم بهذه المطالب حالاً فاخذت تتفاوض بشأنها مع حليفتها المانيا — وقبل انتهاء المفاوضة شهرت ايطاليا الحرب عَلَى النمسا في ٢٣ ايار « مايو » فقطعت جهيزة قول كل خطيب

وحقيقة الامر ان ايطاليا كانت قد صممت النية عَلَى استرجاع املاكها التي تحسب ان النمسا وبين اغتصبوها منها في الماضي فاغتنمت فرصة هذه الحرب

العامة وطالبت النمسا بما تدعيه من المطالب التي ذكرناها في اللائحة المارّة وقد حسبت ان النمسا ترفضها حالاً فتعلن عليها الحرب — ولكن لما رأت ايطاليا ان المانيا والنمسا تتفاوضان في الامر وربما سلمتا باعطاء المطالب لها خافت من الوقوع في مشكل مستقبل — نخطر لها ان الحرب لا بدّ ان يفوز فيها احد الشطرين · فان فاز الالمان والنمساويون رجعوا الى ايطاليا وناقشوها الحساب والزموها بارجاع ما سلبت من النمساويين بل ربما جزوها باخذ غرامة — واذا فاز الحلفاء رجعوا يوم تقسيم الغنائم علَى ايطاليا مدعين انها انما نالت ما نالتهُ من النمسا بقوتهم لا بقوتها فلا تكون في مأمن على ما ملكت وعليهِ رأت اراحةً لضميرها ان تشهر الحرب علَى النمسا قبل ان تنتظر الجواب ولما بلغها بعد ذلك ان النمسا تسلم بما طلبت بدون حرب قالت سبق السيف العذل

آمال جديدة للسوريين من دخول ايطاليا

السوريون بل العرب جميعهم من مسلمين ومسيحيين لا ناقة لهم في هذه الحرب ولا جمل · وغاية ما كانوا يطلبونهُ حكومة عادلة تضرب الامن في البلاد وترفع الضرائب الباهظة عن عواتق العباد · فلما زجت تركيا نفسها في الحرب هالهم الامر لعلمهم ان التكاليف والنكبات تقع عليهم مكرهين · فرجالهم تساق الى الحرب واموالهم تسلب منهم وارزاقهم تصادر كل ذلك لغايات لا يريدونها ولا توافق مصالحهم وهم غير قادرين علَى دفع غطرسة اسيادهم الا بالصبر والامل

في بداءة الحرب عللوا انفسهم بقصر مدتها · ولما دخلت الدولة العثمانية عللوا انفسهم بقرب احتلال شواطئهم وانقاذهم من الفادحات الحاضرة والمستقبلة ثم لما طال الامر ويئسوا من الاحتلال العاجل اخذوا ينشدون الفرج مما تأتيه

الاقدار . فلما هاجم الحلفاء الدردنيل عاش في السوريين ميت الامال وقالوا قربت نهاية الدولة لان الدردنيل لا يستطيع مقاومة اساطيل الحلفاء طويلاً فتسقط قلاعه ويدخل الانكليز والفرنساويون الى الإستانة ويحلون الجيش التركي ويضربون على الباب العالي الذل والمسكنة فترتاح الرعية من الشرور الحاضرة والمقبلة الاَّ ان حساب الحقلة لم ينطبق على حساب البيدر فمر عدة اشهر والمواقع محتدمة على ابواب الدردنيل وفي شبه جزيرة غليبولي والخسائر عظيمة من الجانبين وكانت اخبار اليونان لا تبشر بحسن الحال — فلما دخلت دولة ايطاليا المعمعة في ٢٣ ايار (مايو) عن جانب الحلفاء عادت آمال السوريين تتشدد وقالوا انها ستنقض على النمسا فيشتد الحلفاء على المانيا منفردةً فيهاجمها الفرنساويون والانكليز من الغرب والروس من الشرق وفي اسابيع قليله تضع الحرب اوزارها ويرتاح العالم من مصابها واهوالها

شدة الالمان الحربية خيبت الآمال

اما المانيا فادركت فوز اخصامها عليها سياسةً من حيث سحب ايطاليا من الاتحاد الثلاثي وشهرها الحرب على حليفتها النمسا فارادت ان تعوض عن خسارتها السياسية بباسها الحربي فارسلت قوةً انجدت فيها النمسا على روسيا فلم تمر مدة طويلة حتى طردت الروس من سهول المجر ومن مضائق جبال الكارابات ومن غاليسيه فتفرغ عندئذٍ النمساويون لمناجزة الطليان وادرك العالم ان دخول ايطاليا الحرب لم يكن بالدواء الشافي لتقصيرها وان في المانيا قوةً حربيةً وعندها استعداد تستطيع ان تقف في وجوه اخصامها مهما تكاثروا عليها

سبب استياء الاتراك من السوريين

اصبحت سوريةً بعد دخول ايطاليا الحرب منقطعةً عن الغرب تمام

الانقطاع فان بعض المراكب التليانيّة التي كنا نستأنس بها انقطع مجيئها وتوقيف ارسال المساعدات المالية من السوريين في امركا الى اهلهم وكان الجراد قد انتشر في البلاد وتصاعدت اسعار الحاجيات وبدأت تتعاظم المصائب من جراء الضرائب العسكرية والخدمة الاجبارية وفشت الامراض واخذ جيش المتسولين يتزايد وعبس الزمان واشتدت نكبات الايام عَلَى السوريين واشد تلك النكبات هو استياء اسيادهم الاتراك

وسبب ذلك ان الاتراك بعد نكبتهم الاخيرة في حرب التليان ثم حرب البلقان نهض فريق من السوريين يطلبون الاصلاح عن طريق اللامركزية او الاستقلال الاداري وحجتهم في ذلك ان الدولة العثمانية اصبحت في دور انحطاط متواصل فازدادت نفقاتها الحربية للمدافعة عن حدودها ٠ وكانت ولايات تركيا في ما مضى عديدة تستطيع تحمّل الاعباء الحربية اما الان فقد انسلخ عنها عددٌ كبير من ولاياتها فصار على الولايات الباقية ان تقوم بتلك النفقات وهذا ما لا طاقة لها به فرأت ان تطالب باللامركزية بحيث يصبح الحق لكل ولاية ان تنفق مداخيلها عَلَى نفسها واستعان المطالبون في تنفيذ مطاليبهم هذه بدولتي فرنسا وانكلترا وروسيا وكثر التردد على هذه القنصليات واخذت الدولة العثمانية تسكّن ثائر السوريين بالوعد في اجراء الاصلاح ولكنها كانت في الداخل مستاءة من هذه الحركة اشد الاستياء

فلما شبّت شعلة الحرب الكونية انحازت الى جانب المانيا وبدأت تستعد لصبّ جامات نقمتها عَلَى رؤوس مقلقي راحتها ؛ فاستولت كما ذكرنا آنفاً على اوراق قنصليات الدول المعادية والقت القبض عَلَى من بقي من رعاياهم ثم اخذت توقيف المتهمين بالحركة العربية فخاف الناس عموماً وشرعوا

يتساءلون عما سيكون وكان في هذه المدة قد نقل الوالي بكر سامي بك من بيروت وارسل مكانه الوالي عزمي بك

كيف قضينا صيف سنة ١٩١٥

طلباً للراحة صعدنا الى ضهور الشوير . فكنا نقضي معظم اوقاتنا تحت اشجار الصنوبر نستنشق النسيم العليل ونمتع النفس بمناظر الوهاد والجبال وقد زرنا مع بعض الاصدقاء عدداً من القرى والاديار وصعدنا الى قمم بعض الجبال . وكان لنا في تلك العطلة المدرسية من انس الادباء ما انسانا كثيراً من متاعب المدينة واهتماماتها

وكانت حوادث هذا الصيف متعددة منها ان علي منيف بك عين متصرفاً للبنان بدلاً من اوهانس باشا وكان وصوله الى الجبل في ٢٠ ايلول . ومنها ان قوة فرنساوية احتلت جزيرة ارواد فاخذ الاتراك بابعاد آل عرنوق وغيرهم من المسيحيين عن الشاطئ خوفاً من جعل اتصالية بينهم وبين القوة الفرنساوية في الجزيرة . ومن الحوادث التي حدثت في صيف سنة ١٩١٥ اعدام احد عشر شخصاً (١) في بيروت بسبب المسألة العربية وكان ذلك في منتصف آب وقد انقض علينا ذلك الخبر انقضاض الصاعقة . واجتمع عدد في دير مار الياس ذلك النهار يتحدثون بهذا الامر حاسبينه مقدمة لحوادث مخيفة . فان الحكومة كانت قد اعدمت قبلاً بعض الاشخاص . ولكن شنق احد عشر شخصاً من ادباء المسلمين في يوم واحد لم يكن في الحسبان

---

(١) وهم (١) عبد الكريم الخليل (٢) صالح حيدر (٣) مسلم عابدين (٤) نايف تللو (٥) محمد المحمصاني (٦) محمود المحمصاني (٧) عبد القادر خرسا (٨) محمود العجم (٩) سليم عبد الهادي (١٠) نور الدين القاضي (١١) علي الارمنازي

مرّت أيام العطلة وقد وجدنا انفسنا في آخر الصيف ذاخرين شيئاً من القوّة للقيام باعمالنا · وافضل الساعات في تلك الايام العصيبة كانت ساعات العمل التي بها يلتهي الانسان قليلاً عن السياسة ونكباتها

دخول بلغاريا في جانب المانيا

مرّ مدة والساسة في اوروبا يتبارزون علَى ادخال بلغاريا في المعمعة الكونيَّة · كل فريق يحاول ادخالها في جانبهِ واعداً اياها اوعاداً جميلة فانتصرت المانيا في هذه المعركة السياسيَّة · فان بلغاريا اعلنت في ١٢ تشرين الاول سنة ١٩١٥ الحرب علَى سربيا وهاجمتها من جهةٍ بينما العساكر النمساوية والالمانية كانت تهاجمها من الجهة الثانية فتمكنوا من سحقها ودخلوا مناستر في ٢ كانون الاول « ديسمبر » وهذا لا شك جعل للحرب وجهة ثانية

العدول عن مهاجمة الدردنيل

مرّ معنا ان الانكليز والفرنساويين بدأُوا منذ ١٩ شباط سنة ١٩١٥ بمهاجمة مضايق الاستانة وبعد معارك شديدة بين مدافع بوارجهم وقلاع الدردنيل انزل الانكليز حملة برية في شبه جزيرة غليبولي وفي ٢٦ نيسان اخذوا بمهاجمة القلاع تحت حماية اسطولهم واستبسل الاتراك والالمان في المدافعة عن ابواب الاستانة — فلما فاز الالمان وحلفاؤُهم بادخال بلغاريا عن جانبهم وانقضوا علَى السرب التزم الحلفاء ان يعدلوا عن مهاجمة الدردنيل بعد ان مرّ عليهم نحو ثمانية اشهر في ذلك العراك وشرعوا في ٥ تشرين الاول بانزال

حملة في سلانيك « باذن من اليونانيين » تحت قيادة الجنرال ساراي الفرنساوي . فان اتصال الالمان والنمسا وبين بحلفائهم البلغار بين والاتراك هدد سلانيك فخاف الحلفاء من استيلاء الالمان على ذلك الثغر وجعله قاعدة لغواصاتهم فيعكرون بها صفو البحر المتوسط

ان المانيا صوبت قواها في هذه الحرب الى ثلاث نقاط (١) سحق فرنسا (٢) سحق روسيا (٣) سحق السرب وجعل اتصالية بينهم وبين تركيا للتمكن من مهاجمة الانكليز في مصر · اما روسيا وفرنسا فمرّ على الحرب اكثر من سنة ولم يتهيأ لالمانيا سحقهما · واما السرب فقد فازت المانيا بامنيتها منها وجعلت اتصالاً بينها وبين حلفائها في الشرق وفي هذا الامر كان لالمانيا الميزة على اعدائها الذين مرّ عليهم شهور عديدة يهاجمون الدردنيل لخرقه وجعل اتصالية بينهم وبين حليفتهم روسيا فلم يتمكنوا · على ان السوريين اوجسوا خيفةً من اتصال المانيا والنمسا بتركيا لانهم حسبوا ان هذا الاتصال يجعل المواد الغذائية القليلة في سورية تتسرب الى النمسا والمانيا

ومرّ تشرين الاول وتشرين الثاني وكانون الاول من سنة ١٩١٥ والنكبات والمصائب تتزايد وكان عزمي بك الوالي قد شرع بهدم الابنية في بيروت وتوسيع الشوارع فكنت تسمع وقع المعاول وسقوط الجدران في كل مكان وكل ما اتى في الطريق من كنائس وجوامع ومقامات اولياء هدموه · ومهما يكن من هدم ابنية المدينة من الاضرار على المالكين والمستأجرين فان الفوائد العمومية من ذلك لا تنكر · فقد سقطت الابنية القديمة واتسعت الازقة القذرة الضيقة وتعرضت للهواء ونور الشمس وانفتح باب الشغل لكثير من العملة البطالين والتهى الناس نوعاً عن الاشتغال في السياسة

قال احد المهندسين السور يين ان هدم الابنية القديمة في بيروت كان من اعظم الامور التي جرت في سورية فانهُ هدمَ ما تقدر قيمته بمليون ليرة

ازمات الطحين

في اواخر سنة ١٩١٥ بدأت تظهر للوجود ازمات الطحين واخذا لوارد الى بيروت ولبنان يتناقص فتخوَّف الناس من انقطاعه بتاتاً فشرع الموسرون يتلقفون ما يستطيعون من المواد الغذائيه محترصين عليها لايام الشدة ومع كل ما نشره الوالي عزمي من المناشير تهدئةً لأفكار الناس من هذا القبيل ظل الناس غير واثقين باوعاد الحكومة لان سكان لبنان والسواحل كانوا تحت رحمة السكة الحديدية التي كان عليها نقل الجنود والاعتاد الحربية في الدرجة الاولى ثم نقل الارزاق لبقية الناس عند سنوح الفرص

وكان المتسولون يزداد عددهم والموسرون تقل رحمتهم لانهم خافوا اذا جادوا بما لديهم لا يحصلون على غيره

سير الحوادث عموماً

عند كلامنا في ما مرَّ عن الحوادث الخصوصية التي جرت في بلادنا سبقنا الكلام الى ذكر ما جرى في ساحات الدردنيل والبلقان ومقدمة سيناء . والان نتقدم الى اجمال الحوادث التي جرت في بقية الساحات الحربيةً

الساحة الغربية في اوروبا

تركنا في اواخر سنة ١٩١٤ جيوش الحلفاء والجيوش الالمانية تجاه بعضها في شمالي فرنسا وقد اعتصم كل فريق في خنادقهِ ووراء استحكاماته . ومرَّت سنة ١٩١٥ والمعارك في تلك الساحة متواصلة الاَّ ان تلك المعارك مع شدتها

وكثرة الخسائر من الجانبين فيها لم تكن فاصلة . فان ربع الكيلو متر الواحد من الأرض كان يكلف الخصمين الوفا من الرجال . وكان الالمان يحاولون الاستيلاء على « كالي » والانكليز يستبسلون في صدهم عنها لانها اقرب نقطة في فرنسا الى جزيرة بريطانيا . وفي ١٥ كانون الاول « ديسمبر » اعتزل الجنرال فرنش الانكليزي القيادة في هذه الساحة وحل محله الجنرال هايج

السَّاحة الشرقيَّة في اوروبا

ذكرنا ان الروس اشتدوا منذ البداءة على النمساويين واستولوا على لمبرغ عاصمة غاليسيا ثم حاصروا برزميزل واسقطوها بين ١٧ و ٢٢ آذار « مارس » سنة ١٩١٥ وقطعوا معابر جبال الكارابات واشرفوا على سهول المجر . فلما نزلت ايطاليا ضد النمسا خافت المانيا على حليفتها لأنها اصبحت بين قوتي الروس والتليان فرأت ان تسرع الى نجدتها فارسلت قوَّة ضد الجيش الروسي الذي كان يوغل في بلاد النمسا والمجر واصلته ناراً حامية في معركة «دوناجيك» التي بدأت في ٢ ايار « مايو » سنة ١٩١٥ فاخذ الروس يتقهقرون امام الجيوش الالمانيَّة والنمساويَّة فخسروا بهذا الاندحار ما كسبوهُ في تسعة اشهر

ساحة العراق

بعد ان احتلَّ الانكليز في ٢١ تشرين الثاني « نوفمبر » سنة ١٩١٤ مدينة البصرة اخذوا يواصلون زحفهم شمالاً وفي ٣ حزيران « يونيو » سنة ١٩١٥ استولوا على كوت الامارة واستمروا متقدمين الى الامام حتى بلغوا « تسيفون » مدائن كسرى . وهنالك تكاثرت عليهم القوَّة التركية فتقهقر الجنرال طونزندا الانكليزي بجيشه الى كوت الامارة فحصره الاتراك فيها وقطعوا عنه المدد الا ما كان يرمى اليه من المآكل بواسطة الطيارات الانكليزية

عودٌ الى ساحة سينا

هذه الساحة تمتد من ترعة السويس الى فلسطين وقد مرّ معنا ان جمال باشا بمساعدة القيادة الالمانية تمكن من ايصال جيش مؤلف من ١٢ الف مقاتل الى الترعة في ٢ شباط سنة ١٩١٥ ولما حاول هذا الجيش العبور ليلاً الى ارض مصر ضربهُ الانكليز بالمدرعات والسيارات المصفحة فاندحر تاركاً قتلاهُ ومنذ ذلك الحين اخذ الاتراك والالمان يستعدون او يتظاهرون بالاستعداد لمهاجمة ترعة السويس وقد رأوا ان اهم شيءٍ للوصول الى مصر هو بناء سكة حديدية في صحراء سينا وبناءً عليهِ اخذوا يخرجون فكرتهم هذه من حيز القول الى حيز الفعل وذلك بتسخير الوف من الرجال السوريين للعمل في تمهيد وتعبيد طريق تلك السكة وفي حفر الابار وغير ذلك من الاعمال الشاقة ·

ساحة المستعمرات

اما في المستعمرات فان الحرب كانت سنة ١٩١٥ دائرة في جنوب افريقية بين الانكليز والالمان ففي ١٢ ايار « مايو » احتل الجنرال بوثا مدينة فندهوك عاصمة المستعمرة الالمانية — وما زالت المعارك ناشبة حتى تهيأ للانكليز تمام تدويخ المستعمرة الالمانية في جنوب افريقيا وذلك بين ٩ و ١٥ تموز يوليو سنة ١٩١٥

معارك البحار سنة ١٩١٥

في ٢٤ كانون الثاني « يناير » حدثت موقعة في البحر الشمالي بين الاسطول الانكليزي والاسطول الالماني فالجأ الاول الثاني الى الهرب بعد ان اغرق منهُ الطراد « بلوخر » وفي ١٨ شباط ابتدأ حصار الغواصات الالمانية للجزائر البريطانية وفي ٧ ايار « مايو » أُغرقت بالقرب من شاطئ ارلندا الباخرة الانكليزية لوزيتانيا بغواصة المانية وكانت هذه الباخرة التجارية من اهم البواخر

اعظم حرب في التاريخ

وكيف مرّت حوادثها سنة ١٩١٦

سير الامور في بلادنا

مر معنا ان ازمات الطحين في بيروت ولبنان بدأت تظهر في اواخر سنة ١٩١٥ ثمَّ اخذت في الاشتداد سنة ١٩١٦ فاوجس الناس خيفةً من شر العواقب فاصدر الوالي عزمي بك منشوراً يسكن روع الاهلين بوعده اياهم انه سيبذل جهده في تامين بيروت عَلَى اقواتها وسافر مع متصرف لبنان الى دمشق لحلب سعياً وراء الحصول عَلى ما يكفي السكان من الحبوب ولكنه لم يفز بالمرغوب ليس لقلة الحبوب في الداخلية بل لضعف وسائل النقل

فان معظم اعتماد لبنان و بيروت في نقل اقواتهم من الداخلية كان عَلَى السكة الحديدية وهذه مع قلة الوقيد وضيق الخط وصعوبة المرتقى في عقبات الجبال ومهاجمات الثلوج وتقادم عهد الالات كان عليها ان تقوم اولاً بنقل الجنود والمهمات الحربية وبعد ذلك تنظر في جلب الاقوات الى ابناء الساحل وعليه فحق لمدينة كبيروت ان يستولي الخوف عَلَى سكانها لانهم كانوا يعلمون يومياً ان الوارد بواسطة السكة الحديدية من الاقوات الضرورية كان اقل من المقطوعية · والجمال والبغال التي كان يرجع اليها الناس عند اشتداد النوائب اصبحت ماسورة في يد القوة العسكرية · والبحر لا امل بالفرج منهُ لان بوارج الحلفاء وقفت امام الشاطىء حراماً تمنع كل خير قادم الى سوريه

نعم ان بعض تجار الحبوب في بيروت ولبنان كان لديهم كميات مذخورة ولكن هذه الكميات كانت مجهولة المقدار فضلاً عن ان اولئك التجار لم يذخروها

رحمة بالعباد بل كانوا يتحينون اشتداد الازمة وشدة الحاجة ليخنقوا المساكين والبائسين بفاحش اسعارهم دون ان يردعهم امير او ضمير · هذه الاسباب التي قدمناها جعلت سكان الشاطئ الفينيقي يحسبون الف حساب لما ستلده الايام

ومما زاد اضطراب البال هو ان الحكومة عندما رات الطلب على الدقيق اكثر من الوارد منه منعت بيعه بالكيس وعينت حوانيت للبيع بالرطل بسعر ربع ريال مجيدي وهو ثمن معتدل لا غبار عليه فازدحم الشارون على ابواب تلك الحوانيت يتلقفون ما تصل اليه ايديهم ولما كان الموجود اقل من المطلوب ضج الناس فرأت الحكومة ان تمنع بيع الدقيق بتاتاً وتعهدت هي بتسليم الافران ما يكفي المدينة يومياً ليخبز ويوزع على السكان بواسطة لجان عينتها في احياء المدينة وكلفت ارباب البيوت بتقييد افراد عيالهم مع اعمارهم في دفاتر يصادق عليها المختارون لينال كل واحدٍ نصيبه المعين

وشرعت الافران تقدم (جرايات) الخبز الجيدة الكافية على سعر الرطل ستة غروش تركي صاغ · فتفاءل الناس خيراً وقالوا انها لطريقة المانية تؤمن الشعب على قوته · غير ان هذه الخطة الجميلة ما لبثت طويلاً حتى بدأ التشويش فيها · اولاً بغش الدقيق وثانياً بتقليل كمية الجرايات · فان العائلة التي كان يصيبها يومياً في الاسبوع الاول رطلٌ من الخبز الجيد اصبحت لا تنال في يومها من الاسبوع الثاني ربع رطل من الخبز الاسود والازرق لان الدقيق الذي سلم للافران اصبح مزيجاً من الشعير والكرسنه والباقية والترمس وبزر المكانس والتراب وهلمّ جراً · ومن يا ترى كان يتلاعب في اقوات العباد على هذا الاسلوب · ذلك امرٌ لا نستطيع تعيينه تماماً · وانما نقول ان ابالسة الطمع كانوا في هذه الشركة الشيطانية كثاراً منهم تجار وملتزمون وماموروت وشحنة

ومختارون وهلم جراً · كلهم اتفقوا عَلَى ارتكاب هذه الجناية طمعاً بجر المنافع ولو مات الالوف · فهم قتلة لا محالة

عَلَى انه فوق ما صارت اليه فريضة الخبز من القلة وغش المادة فان الوصول اليها كان اعز من جبهة الاسد لان الذين وُكل اليهم امرها من ارباب الافران كان اكثرهم من (القبضايات) الاخشان في الفاظهم ومعاملاتهم ففضل البعض الجوع عَلَى استلام تلك الفريضة من ايدي اولئك المستبدين الذين كانوا يتحكمون في رقاب العباد

ظهر مما تقدم ان الحكومة العثمانية حاولت سنة ١٩١٦ ان تؤمن الشعب عَلَى قوته الضروري باسعار متهاودة يستطيع احتمالها عَلَى نوع ما · ولكنها فشلت لاسباب منها سوء وسائل النقل من الداخلية وعدم الاستقامة في التوزيع وجشع الموكلين عَلَى قوت العباد وغشهم للدقيق وغير ذلك من الامور التي قصرت الحكومة في ضبطها

الا ان الحكومة مع عجزها الواضح يومئذٍ عن تقديم الاهلين باسعارها وايقاف تجار الضروريات عن رفع اسعارهم فانها ما فتئت تصدر اوامرها بمنع التموين جملة مهددة الناس بتفتيش منازلهم ومصادرة ما تجده زائداً عن مونة شهر وتسليم المخالفين لديوان الحرب

ولكن الشعب استخف بتلك الاوامر غير المعقولة ولسان حاله يقول (انا الغريق فما خوفي من البللِ) فعمد القادرون عَلَى ابتياع ما تصل اليهِ ايديهم من الذخائر والمؤن من اي المصادر الممكنة مهما كلفهم ذلك من النفقات غير مبالين بتهديد الحكومة ووعيدها · وتسهيلاً لادراك الموقف الذي كانت فيه سورية سنة ١٩١٦ نقسم السكان الى ثلاثة

اقسام وهم — (١) الموسرون (٢) المعسرون (٣) المتسولون

اما الموسرون فهم الذين كانت لهم بسطة من العيش تمكنهم من ابتياع حاجاتهم بالجملة لمدة سنة عَلَى الاقل · هولاء هم ارباب المتاجر والمزارع والمناصب الممتازة ولا شك ان يسرهم حماهم من ان ينالهم المحتكرون بسوء كبير لانهم كانوا قادرين ان يبتاعوا مونتهم بالجملة في مواسمها هذا فضلاً عن ان نفوذهم مكنهم من تحصيل وثائق استلام ارزاق من الحكومة باسعار متهاودة او بدون اسعار «ومن له يعطى ويزاد»

اما المعسرون ونعني بهم الطبقة المتوسطة التي لم يكن في مكنتها زمن الحرب ابتياع حاجاتها بالجملة فهذه تمكن المحتكرون من رقاب اهلها فاخذوا يشدون حول اعناقهم الخناق برفع الاسعار يومياً رفعاً فاحشاً دون وازع ولا رادع فأجبرت هذه الطبقة عَلَى بيع ما ملكت يداها من اثاث واواني وثياب بابخس الاثمان لعلها تتخلص من المجاعة الفاغرة فمها لابتلاعها

عَلَى ان هذه الفوضى التجارية في الاقوات الضرورية جعلت الحبوب تتسرب الى ساحل سوريه بطرق متنوعة لان الغلاء كما يقال (جلاب) فانبرى ميئات من المكارين في جنوب لبنان وشماليه يسيرون قوافل مسلحة الى الداخلية لتهريب القمح مخاطرين بارواحهم فانجدوا لبنان باقدامهم وربحوا ارباحاً طائلة بعرق جبينهم اما الطبقة المتسولة فهي التي وجدت منذ بداءة الحرب لاسبدَ لاهلها ولا لبدَ فاخذوا يطوفون في الاسواق وعَلَى ابواب المنازل لعلهم يحصلون عَلَى ما يسدون به الرمق · ولا يخفى ان معيشة مثل هذه الطبقة في بلاد كسوريه لا ملاجئ عمومية فيها تتوقف بالاكثر على الطبقة الوسطى · وسبب ذلك ان معظم ارباب الغنى واليسار يوصدون عند اشتداد النكبة ابوابهم الحديدية ويقطعون اجراس

الاستغاثة ويتحصنون في قصورهم العالية آمنين فلا يزعج نظرهم او يقلق مسامعهم مرأى وانين المتسولين · خلافاً للطبقة المتوسطة التي منازلها سهلة المنال وفي قلوب اهلها شيء من التدين والرحمة · هذه الطبقة استغاث بها المحتاجون فمدت اليهم يد المعونة علَى قدر امكانها مع ان اهلها كانوا علَى شفا جرف هاوٍ يتدهور منهم كل يوم عدد الى حضيض الفاقة والمسكنة

لبنان والمجاعة

اما جبل لبنان فقد كثر فيه المعسرون وسبب ذلك ضيق ارضه الزراعية وانقطاع المال الذي كان يرسل اليه من ابنائه المهاجرين وتوقف حركة الاعمال وامتناع المديون من دفع ما عليه للدائن وغير ذلك من الامور التي فاجات الحرب بها الناس علَى حين غرّة

فلما اقبل شتاء سنة ١٩١٦ واشتد البرد اعتصم الموسرون من اللبنانيين في اماكنهم · اما المعسرون فبعد ان فرغوا من بيع اشيائهم قصد قسم منهم الداخلية يطلبون تحصيل اقواتهم من مخالب الافات · وقسم ظلوا في قراهم يستقبلون الموت تحت سقوف منازلهم · وقسم هبط الى الساحل فاصاب مدينة بيروت منهم نصيب كبير فانضموا الى متسوليها واصبحوا جيشاً عرمرماً وقد كانوا طبقتين

الاولى · هم الذين كان لم يزل فيهم شيء من النشاط مكنهم من ان يطوفوا علَى ابواب المخازن والمنازل للاستعطاء وكانوا يبحثون في الدمن والمزابل لعلهم يعثرون علَى ما يشغلون به المعد الفارغة من قشور الموز والبطاطه والليمون وغير ذلك · وكان بعضهم يقصدون الجيف المنتنة للالتهام منها

اما القسم الثاني فهم الذين خارت قواهم من شدة ما عانوا من سوء المعيشة والجوع فانطرحوا علَى جوانب الشوارع يستنجدون بكلمات تفتت الاكباد · بل

بعضهم لم يبق فيهم الضعف قوة لرفع اصواتهم فكانوا يستغيثون بعيونهم الذليلة علَى ان اشد منظر علَى النفس كان منظر الأطفال المتلوين جوعاً علَى احضان امهاتهم الساقطات علَى الارض والماء يسيل من تحتهم · ويا لله من تلك السحن المخيفة

كنا سنة ١٩١٥ اذا شاهدنا جائعاً واقعاً يزدحم حوله جمهور من المنجدين بعضهم ياتون له بالماء والبعض بالطعام والبعض بالدراهم · وامسينا سنة ١٩١٦ نسير في الشوارع وعن الجانبين الرجال والنساء والاطفال لاصقون في الاوحال يئنون طالبين اظهار الرحمة ولو بكسرة خبز وكان المارة يسيرون وسط تلك المناحة التي ربما لم يشهدها تاريخ سورية · يمرون وقلَّما يمدون ايديهم للاغاثة لان الفادحة كبرت علَى الناس فاندحروا امامها · وكثر عدد المحتاجين حتى لم يعد في الاستطاعة انجادهم · وكان غاية ما يفعله رقيقو الشعور انهم في مرورهم يسترون وجوههم ويسدون آذانهم حتى لا يسمعوا ولا يشاهدوا — بعض هولاء الساقطين علَى جوانب الطرقات كانوا منذ مدة قصيرة عائشين في رغد وهناء · بعضهم كانوا يتعلمون في المدارس فدهمتهم الحرب فتوقفت اسباب معيشتهم ومات اهلهم او ذهب اباؤهم واخوانهم الى العسكرية وتركوا بدون معين · واخذ الموت يجرف منهم مئات كل يوم

اواه اين الصبيان الذين كانوا يلعبون ويصيحون في ازقة القرى والمدن · زالت الافراح فلم تكن تسمع صوت عريس ولا صوت عروس · وأُستبدلت الافراح بانّات اتراح وحزن متواصلة · وصدق علَى البلاد ما جاء في مراثي اشعيا «ان الذين كانوا يأكلون المآكل الفاخرة سقطوا في الشوارع · الذين كانوا يتربون علَى القرمز احتضنوا المزابل · صارت صورتهم اشد ظلاماً من السواد · لصق جلدهم بعظمهم · صار يابساً كالخشب · جلودهم اسودت كتنور من شدة نيران

الجوع · الاطفال تسكب انفسهم في احضان امهاتهم»

ولا شك ان الميتات عَلَى انواعها مخيفة ولكن شر الميتات عَلي ما ارى هو الموت جوعاً · فان الذين يموتون في ساحات الوغى متحمسين يموتون بشرف وعزة نفس واما الذين يموتون جوعاً فيموتون بانحطاط وذلة · ومن العجب ان جياع سوريه كانوا يتضورون واطباق الخبز والماكل حولهم وهم لا يجسرون عَلَى مد ايديهم الى خطف رغيف كانما المذلة والمسكنة ضُربتا عليهم · فالبسوا لباسَ الجوع والخوف والضعفُ

ان النفوس ماتت ولم يكن هنالك من زعماء للقيام بثورة او للاتحاد عَلَى مهاجمة الطعام · والثورة لابد لها من خطة سابقة قبل وقوع النكبة وهذا الامر ينقص السوريين وللتربية شأن كبير

كيف كانوا يستقبلون العظماء

كان في تلك الايام اذا قدم زائرٌ ذو شأنٍ الى بيروت يجمعون الجياع والبائسين في (خانات) المدينة نذكر انهُ عندما زار انور باشا بيروت لاول مرة في عشرين شباط سنة ١٩١٦ مع بعض القواد الالمان صدرت اوامر عزمي بك باعداد زينة وكان ذلك اليوم ماطراً فدخل انور وجمال والقواد الالمان راكبين العربات والسيارات والشعب يهتف لهم والجياع محصورون في مخابئهم لكي لا يزعجوا الضيوف بمرآهم · وكأن الحكومة ارادت ان تغطي (السموات بالقباوات) وكم من جموع يموتون لكي يلمع بعض افراد في التاريخ وهذا شرٌّ من الشرور التي تحت الشمس

وفوق ما كانت عليه حالة البلاد من ذل المجاعة وشدة التعاسة فان اخبار السوء كانت تتوارد تترى عَلَى المسامع وكان باعة الجرائد يقلقون المسامع

بالمناداة قائلين — الثمرة الفلانية مطلوبة للعسكرية — الحكم على فلان وفلان بالابعاد—شنق فلان وفلان—والقاء القبض على اعضاء الجمعية الفلانية· وهلمَّ جرًّا من تلك الاخبار المزعجة

وكان يومئذ عدد من وجهاء البلاد وادبائها في السجن يحاكمون في ديوان عاليه العسكري بتهم متنوعة.

تعليق المشانق في ٦ ايار

قلما مرَّ اسبوع منذ دخلت تركيا الحرب الا واعدم فيهِ بعض اشخاص بطرق متنوعة لاسباب مختلفة منها الاتهام بالتجسس ومنها الهرب من العسكرية وغير ذلك الاَّ ان ٦ ايار سنة ١٩١٦ كان يومًا مخيفًا فقد اصبح معلقًا فيه عددٌ من وجهاء سوريه وادبائها الان المجلس العرفي حكم عليهم بتهمٍ سياسية · منهم سبعة اعدموا في دمشق (١) واربعة عشر في بيروت (٢) فهال الناس هذا الامر وتشددت روابط الاتحاد بين المسلمين والمسيحيين لان نكبتهم كانت واحدة اذ الذين نفذ فيهم حكم الأعدام كانوا من الطائفتين· وعليه فلما شبت الثورة الحجازية في اوائل

---

(١) وهم عبد الحميد الزهراوي — شفيق المؤيد — الامير عمر — شكري العسلي عبد الوهاب الانكليزي — رشدي الشمعه — رفيق سلوم

(٢) وهم عمر حمد — محمد حسين الشنطي — عبد الغني العريسي — عارف الشهابي توفيق البساط—سيف الدين الخطيب—الشيخ احمد طباره — سعيد عقل — باترو باولي جورج موسى الحداد — سليم محمد سعيد الجزائري — علي حاجي عمر — امين لطفي بن محمد حافظ — جلال سليم البخاري

ثم أعدم في بيروت في ٥ حزيران سنة ١٩١٦ الشيخ فيليب والشيخ فريد الخازن وكان قد أُعدم يوسف الهاني في ٥ نيسان سنة ١٩١٥

حزيران (يونيو) سنة ١٩١٦ صبت اليها النفوس وكان السوريون يتلمسون اخبار تقدمها بشوق شديد

الابعاد بدون محاكمة

مرَّ عَلَى الحرب مدة طويلة والحكومة العثمانية في سورية تحاكم المتهمين في مجالسها العرفي فتحكم عَلَى بعضهم بالسجن وعَلَى البعض بالابعاد وعَلَى البعض بالاعدام والسوريون الفوا هذه الضربات غير انهُ في ٣١ اذار سنة ١٩١٦ قبضت الحكومة بغتةً في بيروت عَلَى عدد وابعدتهم بدون محاكمة مع عيالهم الى الاناضول ولم تعلن ذنوبهم ثم القت القبض عَلَى عدد اخر وفعلت بهم كما فعلت بالاولين · وكان هولاء المبعدين من طبقات متنوعة منهم تجار ومنهم ارباب مناصب ومنهم اهل حرف بسيطة · ثم سمع ان ما فعلته في بيروت فعلته في عدة مدن ساحلية وداخلية فاستولى الخوف عَلَى العموم واخذوا يتهامسون زاعمين ان الحكومة العثمانية شرعت تغرب السوريين العرب عن بلادهم لتأتي باتراك مخلصين يحلون محلهم · وكانت قد وصلت قبلاً طلائع الارمن الى سورية بحالة يرثى لها فقال الناس انهُ سيصيب العرب من الاتراك ما اصاب الارمن وسرت الهموم في النفوس ولا سيما في نفوس ارباب العيال الكبيرة · والحقيقة ان الذين غربتهم الحكومة من السوريين بلغوا نحو خمسين الفاً هؤلاء قذفتهم الى الداخلية فمات منهم نحو نصفهم · وكانت تلك الايام من اشد الاوقات عَلَى السكان لان الانسان لم يكن يعرف متى ياتي دوره

القراطيس العثمانية

في ١١ نيسان سنة ١٩١٦ ادخلت الدولة العثمانية قراطيسها المالية واوجبت التعامل فيها وقد كان (البنك نوت) العثماني في الاسابيع الاول رائجاً قيمته قيمة

الذهب. الا انه لم يمضِ شهر حتى اخذت الورقة العثمانية بالهبوط. على ان هذه العملة مع سيئاتها لم تخلُ من بعض الحسنات لان هبوط اسعارها المتواصل دفع الناس الى التحرك تجارياً فكان الذين بيدهم الورق يسعون للتخلص منهُ بابتياع بضائع او اثاث او ملك. وعندما تدهورت الورقه العثمانية كثيراً اخذ المديونون يستغنمون هذه الفرصة السانحة لتسديد ديونهم من هذه العملة فكم من عجزٍ سلموا البعض قبل الحرب ذهباً خالصاً فارغموا على قبضه ورقاً بقيمة الذهب فضربت البلاد اكبر ضربة بضياع ثقة الناس بعضهم ببعض وكشفت الايام عن جوهر اشخاص كانوا يحسبون قبل الحرب ذهباً واذا هم اقل من نفاية الحديد من حيث الطمع والجشع وسوء المعاملة ولا شك ان هذه الحركة التي رام فيها البعض ابتلاع غيرهم كانت على الشعب من قبيل لحس المبرد اذ يسيل الدم من اللسان فيتوهم اللاحس انهُ نال شيئاً والحقيقة انهُ خسر من قوته وحياتهِ

وقد دافعت الحكومة عن قراطيسها وبذلت جهدها في حفظ مكانة الورقة العثمانية بالتهديد والوعيد ولكن مساعيها ذهبت ادراج الرياح فكانها كانت تسعى في رفع تلك العملة الى اسفل

الامراض سنة ١٩١٦

فوق تلك النكبات التي ذكرناها كان على السكان ان يستقبلوا ضربات الامراض. فهاجمت البلاد جيوش من المكروبات بسبب المجاعة وسوء العيش. فانتشرت في المدن والارياف وبين الاغنياء والفقراء. الجدري والحصبة والملارية والدوزنطارية. والحمى الراجعة والتيفوس والتيفوئيد. والجرب والقرع والهواء الاصفر وهلم جراً مما لا يدخل تحت حصر — اذكر اني عزمت

ان اذهب بعائلتي الى لبنان لقضاء عطلة الصيف فاصيب عدد من اولادي بحميات متنوعة لم نستطع التخلص منها الى اواسط آب فتوجهنا الى ضهور الشوير وقضينا نحو شهرين نروح النفس من عناء الاتعاب وقد كنا نرافق احياناً طبيب[1] القضاء الى بعض الاماكن ومن تقارير الكهنة و بعض الشيوخ علمنا ان بعض القرى خسرت ثلث اهلها بسبب المرض والجوع و بعض المزارع كادت تخلو من السكان

وتأييداً لهذا اذكر ان المرسلين الاميركان اجروا بحثاً في احوال ابرشيتهم في صيدا ولبنان فنظروا في امر ٨٢ قرية فوجدوا انهُ كان في هذه القرى قبل الحرب عشرة آلاف بيت تخرب منها في مدة اربع سنوات الحرب الفان وخمس مئة بيت. وكان في هذه ٧٧ الفاً من السكان قبل الحرب فبقي منهم في نهايتها ٤٤ الفاً منهم ١٩ الفاً معدمين يحتاجون الى القوت اليومي وفيهم ٢٦٠٠ يتيم

ثم نزلنا في اوائل تشرين الاول الى بيروت لاستئناف العمل. وقد كانت صدرت اوامر جمال باشا بالغاء (البدلات) العسكرية وسوق الجميع الى الحرب فضجَّ الناس عموماً ولاسيما اهل اليسار الذين اعتادوا على التنعم والترفه فاخذوا يتوسلون للتخلص من الجندية مهما كلفهم ذلك فسمح (جمال) بدفع البدل النقدي ذخيرة من الحبوب او السمن. فكان على المتعهد ان يوصل الى المعسكر على نفقتهِ كميات كبيرة من الذخائر تبلغ قيمتها مئات من الليرات الذهبية

---

(١) الدكتور ملحم الحداد

سير الحوادث في العالم عموماً سنة ١٩١٦

عند ما بزغ فجر هذه السنة كان عدد الدول المشتبكة في هذه الحرب العمومية اثنتي عشرة وهي — المانيا والنمسا وتركيا وبلغاريا من جانب — وفرنسا وروسيا وانكلترا وايطاليا واليابان وبلجكا وسربيا والجبل الاسود من الجانب الآخر · وعليهِ فان ساحات الحرب كانت متعددة وهنا نورد لمحة عن كل منها باختصار

ساحة الدردنيل

مرَّ معنا ان الحلفاء رأوا بعد ان قلبت بلغاريا لهم ظهر المجن ان يعدلوا عن مهاجمة الدردنيل ويسيروا حملة الى سلانيك تهديداً لزحف اعدائهم عَلَى سربيا وفي ٨ كانون الثاني سنة ١٩١٦ تم جلاء الانكليز والفرنساويين عن غاليبولي غير ان الالمان والنمسويين استولوا عَلَى ستنجه عاصمة الجبل الاسود وفي ٢٨ منهُ احتل النمساويون ثغر جوفني في البانيا

الهجوم عَلَى حصون فردون

وكأنَّ الالمان احبوا ان يجربوا حظهم في فردون كما جرب حظهم الحلفاء في الدردنيل وعليهِ فقد ساقوا في ٢١ شباط سنة ١٩١٦ جيشاً عرمرماً عَلَى ذلك المعقل المنيع قصد اسقاط حصونهِ ليتسنى لهم الاستيلاء عَلَى باريس · وقد استعرت المعركة حول تلك الحصون وسقط عدد منها بيد الالمان ولكن حامية فردون استبسلت وكلفت العدو خسائر جسيمة فبدأ يتراجع في ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) · ويقال ان الالمان وحدهم خسروا في هذه المعركة الطويلة نحو اربع مئة الف جندي · فكان نصيبهم كنصيب اعدائهم امام مضايق الاستانة

ساحة العراق

ذكرنا سابقاً ان الجيش الانكليزي الزاحف عَلَى بغداد صُدَّ عند مدائن كسرى فارتد الى كوت الامارة وحُصِرَ فيها في ٧ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٩١٥ · وما زال الاتراك يشددون عليه حتى التزم قائده الجنرال طونزند الى التسليم مع نحو اثني عشر الفاً من الجنود الانكليزية والهندية و كان ذلك في ٢٩ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٦

ساحة ارمينيا

كانت الحرب في هذه الساحة من قبيل الكر والفر غير ان الروس في اوائل سنة ١٩١٦ ارتدوا عَلَى الاتراك بقوة فاستولوا في ١٥ شباط (فبراير) عَلَى ارضروم وفي ١٧ نيسان (ابريل) عَلَى طرابزون وفي ٢٦ تموز (يوليو) عَلَى ارزنجان واحتلوا عدة اماكن كوان وموش و بتليس

الروس والنمساويون

ذكرنا في حوادث سنة ١٩١٥ ان الالمان انجدوا النمساويين واجبروا الروس علي ترك الاماكن التي كسبوها من النمسا غير ان الجيش الروسي عاد فهجم عَلَى النمساويين في ٤ حزيران (يونيو) سنة ١٩١٦ واجتاح بيكوفينا وقسماً من غاليسيا · ولما رأت رومانيا ذلك حدثتها نفسها باعلان الحرب عَلَى النمسا واحتدمت الموقعة السياسية بين الحلفاء والدول الوسطى فهولاء ارادوا ان تبقى رومانيا عَلَى الحياد واولئك سعوا في ادخالها المعمعة واعدنها بنصيب من اراضي النمسا يوم تقسيم الغنائم ففاز الحلفاء بجرها الى المعمعة · وكان الناس يتوقعون ان الجيش الروماني سيرجح كفة الحلفاء و يعجل في انهاء الحرب فساء فألهم

رومانيا والنمسا .

في ٢٧ آب (اغستوس) سنة ١٩١٦ شهرت رومانيا الحرب عَلَى النمسا وشهرت ايطاليا الحرب عَلَى المانيا . وفي ٢٨ منهُ شهرت المانيا الحرب عَلَى رومانيا وعينت في ٢٩ منهُ هندنبرغ رئيساً لاركان حرب الجيش . وفي ٣٠ منهُ شهرت تركيا الحرب عَلَى رومانيا .

اما الجيش الروماني فاجتاز مضائق الكربات ودخل الاراضي النمسوية فهجم الالمان عَلَى رومانيا بقوة واطبقوا عليها مع البلغار والعثمانيين من الجنوب ومع النمساويين من الشمال

وفي ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) استولى الالمان والبلغار عَلَى ثغر قسطنزه الروماني عَلَى البحر الاسود . وفي ٦ كانون الاول (دسمبر) استولى الالمان والنمساويون عَلَى بخارست عاصمة رومانيا وتوقف هجوم روسيا وانخزلت رومانيا

وبعد هذا الانتصار الذي احرزتهُ المانيا عرضت الصلح عَلَى اعدائها عَلَى شرط لا غرامة ولا استلحاق ولكن الحلفاء ابوا المصالحة عَلَى هذا الشرط

ايطاليا والنمسا

في اول ايار (مايو) سنة ١٩١٥ شهرت ايطاليا الحرب عَلَى النمسا وزحفت جنودها نحو تريستا واستولت بعد عراك شديد عَلَى عدة اماكن غير ان النمساويين في ١٤ ايار (مايو) سنة ١٩١٦ شددوا عزائمهم وهجموا عَلَى الجيش الايطالي واضطروه الى التقهقر واسترجعوا منهُ عدة اماكن . وبينما كان الايطاليون متضايقين جرى الهجوم الروسي الانف الذكر عَلَى بيكوفينا فرفع الضغط عن الجيش الايطالي فكر هذا عَلَى النمساويين وفي ٩ آب (اغستوس) سنة ١٩١٦ استولى عَلَى غوريتزا

سينا والحجاز

في اوائل حزيران (يونيو) سنة ١٩١٦ اعلن الشريف حسين بن علي قطع علاقاته بالدولة العثمانية وانضم الى انكلترا وحلفائها · و في ٢١ حزيران استولى عَلَى مكة المكرمة ثم عَلَى جده والطائف وحاصر الحامية العثمانية في المدينة المنورة ونودي بهِ ملكاً عَلَى الحجاز واعترف الحلفاء بهِ رسمياً — وقيام شريف مكة عَلَى الاتراك جعل المسلمين العرب ينحرفون تمام الانحراف عن الدولة العثمانية ولا سيما انها كانت قد شنقت عدداً من السوريين بسبب الدعوة العربية — اما الانكليز فنالوا بذلك من الترك مآربهم وشرعوا في اوائل آب بمد سكة حديدية بين مصر وفلسطين يرافقها ماء النيل تأميناً للجيش · وفي الرابع منهُ واقعوا الاتراك في الرمانة فهرب هولاء من قطية فبئر العبد الى العريش · وفي ٢١ كانون الاول (دسمبر) احتل الانكليز العريش · وفي ٢٧ منهُ احتلوا مقضبة

ساحة افريقيا

في ١٨ شباط (فبراير) سنة ١٩١٦ استولى الحلفاء عَلَى مستعمرة الكمرون الالمانية ثم في ٤ كانون الاول (دسمبر) سلمت دار السلام الالمانية في شرق افريقيا للانكليز

ساحة البحار

لما رأت المانيا ان اعداءَها قادرون عَلَى جلب ذخائرهم من اميركا بواسطة مراكبهم التي كانت تحميها اساطيلهم نبهت الولايات المتحدة ان تتوقف عن امداد الحلفاء بالذخائر فابت هذه مدعية انها حرة في تجارتها تبيعها لاي من اراد ان يشتري منها عندئذٍ رأت المانيا ان تعلن حرب الغواصات عَلَى اي

المراكب التي تحمل الذخائر لاعدائها فارسلت اميركا في ٢٤ نيسان سنة ١٩١٦ مذكرة الى المانيا تحتج فيها عَلَى حرب الغواصات وتهددها بقطع العلائق السياسية الاَّ اذا عدلت عنها. ولم يحدث سنة ١٩١٦ بين اسطولي انكلترا والمانيا الاَّ معركة جتلندا في البحر الشمالي وذلك في ٣١ ايار (مايو)

حملة سلانيك

ذكرنا ان الحلفاء نظموا هذه الحملة لتهديد زحف الجيش الالماني النمساوي الذي اجتاح سربيا واتصل ببلغاريا وتركيا . وقد كان يقود هذه الحملة الجنرال سرايل الفرنساوي فاخذت تتقدم ببطء . وفي ١٨ تشرين الثاني استولت عَلَى مناستر

الساحة الغربية في اوروبا

ابتدأ فيها في ١ تموز سنة ١٩١٦ الهجوم الفرنساوي الانكليزي في السوم وربما كان الغرض من ذلك رفع الضغط عن فردون ثم في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ابتدأ الهجوم الانكليزي عَلَى الانكر

منشورات

في ٢٤ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٦ ابتدأت الثورة الارلندية ولكن الانكليز احتاطوا لها واخمدوها في ١ ايار (مايو) فلم تستمر سوى اسبوع واحد

وفي ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٦ تعين السر دافد بيتي قائداً عام للاسطول الانكليزي بدلاً من السر جون جليكو . وفي ٥ كانون الاول (دسمبر) استعفى المستر اسكويت من رئاسة الوزارة الانكليزية . وفي ٧ منهُ تعين لرئاسة الوزارة المستر لويد جورج . وفي ٢٠ منهُ نشر ولسن رئيس الولايات المتحدة مذكرة عن الصلح — هذه حوادث الحرب العمومية سنة ١٩١٦ اوردناها باختصار مع تواريخها ليرجع اليها عند الحاجة

اعظم حرب في التاريخ

وكيف مرّت حوادثها سنة ١٩١٧

سير الحوادث في بلادنا

ذكرنا في اواخر حوادث سنة ١٩١٦ ان جمال باشا اصدر امراً بالغاء البدل النقدي السنوي وهو نحو ثلاثين بنك نوت عثماني وسوق جميع المكلفين دون استثناء الى ساحات الحرب بدعوى ان الدولة تحتاج الى رجال اكثر مما تحتاج الى مال وهذا الامر القى الرعب في صدور الناس عموماً فاخذ كثيرون من الاغنياء والادباء يسعون بالتزام تقديم حطب للعسكرية او غير ذلك من الاعمال الشاقة تخلصاً من الجندية المكروهة وبعد توسلات ارباب الوجاهة سمح جمال باشا بقبول البدل النقدي ذخيرة يقدمها الشخص على نفقته الى المركز الذي تعينهُ القيادة العليا وكان مقدار تلك الذخيرة ستة عشر قنطاراً سورياً من القمح او ما يعادل قيمتها من السمن والقطاني تؤدّى سنوياً وكانت هذه الكمية تكلف يومئذٍ نحو الف ليره عثمانية (بنك نوت) . فاندفع الاغنياء واهل اليسار لانقاذ حياتهم بهذه القيمة على ان بعض متوسطي الحال باعوا بيوتهم واملاكهم لشراء نفوسهم من جور العسكرية . وهذا جعل طلب الحبوب شديداً فارتفعت الاسعار واشتدت المجاعة . ولا يخفى ان ١٦ قنطاراً سورياً تساوي اكثر من اربعة آلاف كيلو وهي كمية من القمح تقوم بمعاش اكثر من ثلاثين جندياً مدة سنة من الزمن . فطريقة جمال هذه مكنتهُ من تموين جيش كبير على نفقة اشخاص قلائل في البلاد والذين لم يستطيعوا اداء هذه

الفريضة وهم القسم الاكبر سيقوا الى جبهات الحرب الا الذين خاطروا بانفسهم ففروا او اختبأوا من وجه الغضب وكانك بالوطن يومئذٍ اصبح خاويًا خاليا من فتيانه ورجاله من سن ١٦ الى ابن خمسين

الطبية العثمانية والطبية اليسوعية

وكانت الحكومة العثمانية قد استولت على منشآت الدول المعادية ومنها الطبية اليسوعية في بيروت فهذه حولتها الى مدرسة طبية عثمانية تلقى فيها الدروس بالتركيه واستقدمت اليها اساتذة اتراكاً من الاستانة وكان طلبة هذه المدرسة معفين من العسكرية الى ان ينالوا الشهادة القانونية منها · وعليه اقبل على هذا المكتب مئات من سورية وفلسطين بعضهم عُزاب وبعضهم متزوجون وبعضهم تجار وبعضهم صناع يستظلون بظل هذا المعهد المبارك ويتمتعون بمرتبات وجرايات يتناولونها من الحكومة · والنبيه منهم كان يبذل غاية الجهد لكي يقصر في الامتحانات حتى لا ينال شهادته قبل انتهاء الحرب وقد روى لنا بعض تلامذتها انهم كانوا يغيبون ويوكلون احد ارفاقهم بالمجاوبة عنهم (نعم) عند تلاوة نمر الحاضرين مما يدل على تشويش الادارة وعدم الضبط في ذلك المعهد ومع هذا فله الفضل في حفظ اولئك الفتيان من نكبات الجندية التي لا تحصى

الكلية الاميركية

اما الكلية الاميركانية فقد كثر طلابها في الدائرة الاستعدادية وقل عددهم في الدوائر العليا وسبب ذلك انها لم تستطع ان تحمي ابناء الولايات من الجندية

فسيق منهم من كان تحت الاسنان العسكرية الى ساحات الحرب ودبر بعضهم الوسائل وانتقلوا الى الطبية العثمانية المشار اليها

على ان جمال باشا لم يظهر العداوة للكلية الامركانية لاعتقاده انها تربي رجالاً لخدمة الجيش وهذا جعله سنة ١٩١٧ يعفي المدرسين فيها من الخدمة العسكرية ويسمح بتموينها من مستودعات الجيش باسعار الحكومة وهي حسنة تذكرها له الكلية ومن لهم علاقة عمل بها لان اسعار الحاجيات كانت يومئذٍ نوعين اسعار السوق وقد كانت ابداً آخذة في الصعود الفاحش · واسعار الحكومة وقد كانت رخيصة جداً بالنسبة الى اسعار السوق

اما عزمي بك والي بيروت فكان من اخصام الكلية الامركانية يتحين الفرص للقضاء عليها بدعوى ان الاجانب كلهم إعداء لتركيا فلا ينبغي ان يركن اليهم · وقد بلغه مرة ان في احد كتب التدريس اي الجغرافية الانكليزية في القسم الاستعدادي بعض عبارات انتقادية على الاتراك فابرق وارعد وارغى وازبد وازعج الادارة اي ازعاج ولولا مداخلة جمال باشا لاغلق المدرسة بتاتاً

ساحة العراق وساحة فلسطين

وفي ٢٤ يناير سنة ١٩١٧ استرجع الانكليز كوت الامارة وفي ١١ مارس استولوا على بغداذ · ولكنَّ السوريين لم يكونوا ليتوقعوا الفرج من ساحة العراق بل من ساحة فلسطين لانها اقرب الساحات اليهم ومعظم ابنائهم فيها

مرَّ معنا ان الانكليز استولوا في ٢١ ك ١ سنة ١٩١٦ على العريش ثم تقدموا في اوائل سنة ١٩١٧ نحو غزه فصدمهم الجيش التركي صدمةً هائلةً

مما جعلهم يحسبون ان الاستيلاء على غزة ليس بلعقة عسل فاخذوا يستعدون لمعاودة الكرة واخذ جمال باشا يكلف السوربين بتقديم اكياس لاصطناع قلعة رملية يحارب الجيش العثماني عدوه من ورائها . ثم سافر جمال الى الاستانة في الربيع بعد ان نشر منشوراً قال فيه ان اورشليم اشبه بالدردنيل فهي امنع من عقاب الجو حصينة لا توءخذ وشاع ان تركه سورية كان لانه وقع اختلاف بينهُ و بين القيادة الالمانية في فلسطين

ثم بدأ الاتراك يجلون سكان سواحل فلسطين الى الداخلية فرحلوا سكان غزة و يافا فاستولى الرعب على سكان مدن الساحل جميعها لانهم حسبوا ان القذف بهم صغاراً و كباراً الى الداخلية اشد هولاً من مهاجمة العدو لهم في ديارهم . وفي ٥ نيسان شهرت الولايات المتحدة الحرب على المانيا وانقطعت العلاقات السياسية بين اميركا و تركيا فاغتنم عزمي بك والي بيروت هذه السانحة وامر الكلية الامركانية بتوقيف التدريس واوقف رجال الشحنة على ابواب المدرسة يمنعون كل شيء يخرج منها عدا التلامذة واشياءهم . ومن اصعب الامور ضبط مئات من التلامذة بدون عمل . وقد خاف الاجانب في المدرسة الكلية من النفي الى الداخلية وخاف الوطنيون من ان يوءخذوا بجريرتهم

وكان في غرفتي مفكراتي هذه بشأن الحرب فحاولت اخراجها مع بعض الكتب فمنعت وكان لي في مستودع الكلية نحو الف نسخة من كتبي المدرسية فاستحصلت على شهادة من ادارة الكلية ان الكتب من ممتلكاتي فلما ابرزتها للمدير البوليس (وهو يومئذٍ شاب تركي غاية في التهذيب) ارسل معي احد افراد الشحنة وسلمني اياها . و بينما كانت ادارة المدرسة تهتم بتسليم

موجوداتها الى الحكومة العثمانية وتفكر في امر تدبير عدد كبير من التلامذة المصريين الذين انقطعت علاقتهم باهلهم من اول الحرب وردت اوامر من الاستانة باعادة فتح الكلية لان امركا انما شهرت الحرب على المانيا لا على حلفائها فسري عنا وحمدنا الله . اما المدة التي توقفت فيها الكلية فاسبوعان خرج اثناءهما عدد من التلامذة . فاستأنفنا العمل والمعلمون والطلبة والبلاد كلها مضطربة الافكار . وفي اوائل تموز منحت المدرسة عطلتها فاخذنا نفكر في كيف نقضي عطلة الصيف

اشتداد الضيق والاضطراب

بلغنا نهاية السنة المدرسية وقد اشتد الخناق على الاعناق بسبب غلاء المعيشة الفاحش والمصادرة والاحتكار . هذا فضلاً عن الوجل الذي استولى على النفوس عموماً مما تلده الايام من المزعجات التي لم تكن في الحسبان . لان الحكومة التركية اصبحت سريعة التأثر حساسة الى درجة تعدم الناس او تنفيهم لاقل وشاية او تهمة تتوجه اليهم . وقد ذكرنا انهُ عندما اقترب الجيش الانكليزي من غزة رأت الحكومة العثمانية ان ترحّل اهلها الى الداخلية فتركت المدينة قاعاً صفصفاً ثم رحلت سكان يافا واخذت الاشاعات تزداد ان في النية ترحيل سكان شواطئ فلسطين وسورية جميعهم فدب الرعب في القلوب ولا سيما العيال الذين كان عليهم ان يتركوا بيوتهم ومونتهم ويهيموا على وجوههم صغاراً وكباراً كما جرى لاهل غزة ويافا . ويالله من هول تلك الاشاعات المكدرة التي كانت يومئذٍ تتوارد على المسامع تترى

وقد عزت يومئذٍ وسائل النقل . فان مدينة بيروت كانت قبل

سنة ١٩١٤ ملأى بالعربات والمركبات فلما بدات الحرب اخذت العسكرية تصادر الجمال والبغال والخيول وما بقي منها مات جوعاً او اصبح بحكم الميت لقلة الغذاء فما بلغنا سنة ١٩١٧ حتى كنت ترى بيروت مدينة اموات هادئة قلما يشاهد عربة للاجرة واذا وجد فحالة تلك المركبة من حيث منظرها والحيوانات التي تجرها حالة دمار وخراب وعليه اصبح الانتقال من مكان الى آخر غاية في الصعوبة ولا سيما على ارباب العيال · وبناءً عليه اخذنا نطرد من افكارنا امر الاهتمام بقضاء عطلة الصيف في لبنان · لانا وجدنا ان تركنا بيروت يزيد في اتعابنا اذ يحملنا مشقة الاهتمام بنقل اشيائنا وبالاستئذان باخذ مونتنا وبايجاد من يحرس لنا بيتنا هذا فضلاً عن زيادة نفقاتنا الى غير ذلك من المشاكل والاهتمامات التي نحن في غنى عنها ففضلنا البقاء متبعين حكمة المثل القائل «الحس مسني وانام متهني»

كيف قضينا عطلة صيف سنة ١٩١٧

راس بيروت لسان طويل داخل في البحر قلما يفارقهُ النسيم العليل في فصل الصيف · فالذي يقضي سحابة نهاره في بيته لا يشعر بوطأة الحر ولكن قضاء الوقت في البيت مدة بدون عملٍ طويلة يورث الملل فاخذنا نفكر في رسم خطة نستطيع بها ان نقتل الضجر والسآمة ونكتسب صحة ندفع بها عاديات الامراض الوافدة التي كانت تهاجم الناس على اختلاف طبقاتهم · اما الخطة التي كان لنا منها البركة فهي الاستحمام اليومي في البحر وقضاء بعض ساعات على الشاطئ نروح بها النفس من مزعجات الحياة

خصوصيات بيتية ربما افاد ذكرها

كنت انهض قبل الساعه الخامسة صباحاً وايقظ افراد العائلة مرغباً اياهم

في الذهاب الى البحر للتنزه والاغتسال — وللبحر من بيتنا طريقان طريق المنارة العام وهذا كنا نعدل عنهُ تخلصاً من (الرسميات) وتجنباً للمشاكل والتحكمات البشرية التي كان عرضةً لها يومئذٍ كل انسان · اما الطريق الثانية فهي ضيقة ذات منعطفات عديدة تخترق البساتين ويحرسها عن جانبيها الصبير فهذه قلما كنا نصادف فيها بشراً

وكنا قبل الخروج من البيت لا بد لنا من مناجاة الله بصلاة هي « اللهم يا خير رفيق · احفظنا من شرور هذه الطريق · من الشرور التي امامنا ووراءنا · ومن التي عن يميننا وشمالنا ومن التي فوق رؤوسنا وتحت اقدامنا · احفظنا برحمتك ذهاباً واياباً يا ارحم الراحمين »

ان مفاجآت تلك الايام العصيبة كانت مخيفة فكم ممن خرجوا من بيوتهم ولم يستطيعوا الرجوع اليها لاسباب متعددة · منها مداهمة الجاندرمة لهم وسوقهم الى جهات الحرب — ومنها القاء القبض عليهم ونفيهم الى الداخلية لسوء ظنٍ او وشايةٍ · ومنها مهاجمتهم من مكروبات الامراض الفضالة التي لم تكن لتحصى في تلك الايام · او اصابتهم بقذائف البوارج والطيارات التي كانت تنتاب من وقت الى آخر سواحل سورية فتزعج الناس باصوات مدافعها اي ازعاج فقد كان يطلق احياناً مئة مدفع دون ان نعلم الداعي لذلك وقد لا يكون السبب اكثر من قارب محمل بطيخاً فيغرقونهُ بتلك المدافع منعاً للوارد الى الساحل وبعد ان كنا نستأنس بقدوم دوارع الحلفاء اصبحنا نستعيذ بالله من شرها وشر الطيارات التي كانت ترمي قذائفها من وقت الى اخر على محل (السوقيات العسكرية) او على (الكمرك) او على ماتظنهُ خنادق — ومن القنابل التي القتها الطيارات واحدة نزلت عند المقبرة الاسلامية التي بقرب شارع

(البوستة) فدمرت عدداً من القبور وفتحت حفرة محيط فمها اربعون خطوة على ان اولادي الصغار كانوا يسيرون امامي في تلك الازقة الضيقة وبجانبهم الخروف المعلوف الذي كنا نسمنهُ لغدرات الزمان فيثبون ضاحكين يتحدثون بالسباحة وقد يمزجون احاديثهم بشيءٍ عن الحرب التي امتلأت النفوس من اهوالها ولكن مهما يكن فهواجس الصغار غير هواجس الكبار وقد كنت اسير خلفهم صامتاً متذملاً بعباءَتي اتوكا على عصايَ

استقبالنا للبحر

وبعد سير عشر دقائق في ذلك الزقاق الضيق ننتهي الى رابية فسيحة نطل منها على البحر فنشعر بنسيمه العليل ونستأنس بمرآه الجميل ونطرب بعجيج امواجه التي هي نغمات موسيقية سامية ترفع النفس فتتبدد الاهتمامات والانزعاجات فنشعر ان الاكدار كلها زالت عنا ثم نهبط الى ذلك الشاطئ الجميل ونخلع اثوابنا عند احد الخلجان · وبعد ان (ابسمل واحوقل واحمدل) اغوص تحت الماء واسير مسافة حبس نفَس ثم اطفو واروض جسدي بعدة ابواب من ضروب السباحة استخدم في كل منها احدى وعشرين حركة ومن هذه الابواب السباحة التذريعية بحيث اسير على سطح الماء محركاً جسدي بتناوب حركات ذراعي والجانبية فاسير على كل من الجانب الايمن والايسر بدفع الماء برجل واحدة والسباحة الظهرية فاتحرك مسافة وانا على ظهري دافعاً الماء بكلتا رجليَّ · وفي الاخير انتصب واقفاً رافعاً يدي فوق راسي متوجهاً نحو الشرق مستقبلاً سلطانة الانوار وقد اطلت بجلالها من وراء الجبال فاحس بارتفاع النفس الى خالقها فاتضرع اليه بطلبةٍ منطوقها « اللهم خالق الاكوان

انهم بارسال اشعة انوار السلام الى هذا العالم المضطرب · اوقف بقدرتك السرمدية هذه المجزرة البشرية · هدئ بركان ثوران قوة الامم الغضبية عجل بانقاذ بلادي من ويلات هذه الحرب · نجِّ اصدقائي وانسبائي واهلي وعائلتي ونفسي والعالم اجمع من هذا الهول · وليات ملكوتك ملكوت المحبة والعدل والسلام „

وبعد هذه الرياضة الانفرادية اتوجه الى الحوض الذي فيه اولادي فاجدهم يرقصون في الماء جذلين فرحين فنقضي معهم وقتاً بتعليمهم السباحة ثم نخرج من الماء وبعد تنشيف اجسامنا ولبس اثوابنا نشعر بنشاط وانشراح نفس فنجلس في ظل صخرة هناك فاوزع الرائق عليهم وهو على الغالب رغيف من الخبز مع قطعة من قمر الدين فنلفيها الذ طعام ذقناه بعد تلك الرياضة

ولعلك ايها القارئ تستخف بهذه العلفة وتقول ما استخفها على انك لو علمت ان ذلك الرغيف لا تستطيع ابتياعه من السوق يومئذٍ باقل من عشرة غروش تركية وان تلك القطعة من قمر الدين تساوي خمسة غروش اي ان ترويقة الواحد ثمنها ١٥ غرشاً تركياً فالعشرة يكلفون مئة وخمسين غرشاً · لو علمت ذلك لعظمت في عينيك تلك العلفة ولما تعجبت من تقديرنا هذه النعمة قدرها

وكنا بعد الطعام نجلس في ظل ذلك الصخر مسلين النفس ايام هيجان البحر بالنظر الى حركات اللجج التي كانت تهاجم الصخور تحت اقدامنا ونطرب بتلك الانغام الموسيقية التي لا يمل من سماعها — وفي اوقات هدو البحر كنا نروح النفس بمراقبة اسراب السمك الصغيرة تتلاعب في الماء كانها غير شاعرة بشيء من اثقال الحياة واهتماماتها · كان ذلك الشاطئ قبل الحرب مأنوساً في مثل هذه

الايام بالشبان (الصيادين) واما اليوم فلم تكن لترى احداً منهم · فقد سيق معظهم الى ساحات المعارك واختبأ البعض الآخر من وجه القوة العسكرية التى كانت (تكبس) البيوت وتطارد الفارين

وبعد قضاء ساعتين في ذلك المكان نمتع بها العين ونشنف الاذن يتقلص الظل ويهاجمنا الحر فنقفل راجعين ادراجنا وربما ملنا بعض الدقائق الى الفاخورة بالقرب من المنارة فنشاهد حذاقة الفخاري في تحويل الدلغان بآلته وبمهارة يديه الى آنية جملية وقد نبلغ البيت بعد الساعة السابعة فنأكل بقابلية علفة ً ثانيةاشدّ من الاولى شاكرين نعم المولى

(لعبة الكروكاي)

هذه لعبة افرنجية يمكن ان يشترك فيها عدد من اللاعبين في آن واحد فقد كانت يومئذ من مسلياتنا ومسليات الاصدقاء فكنا نقضي نحو ساعة في هذه اللعبة التي افرزنا لها قسماً من فناء البيت تسليةً وتمويهاً · عندئذٍ يشتد الحر فنلجا الى المنزل وينصرف كل واحد الى عمله الخاص وكان من شؤون الاولاد العزف على آلةٍ موسيقية يتناوبون عليها فلا يهدأ لها صوتٌ ولا شك انها من الوسائل التي اراحت عقولنا في تلك الايام · كل من في البيت كان له المام بالعزف على تلك الالة الا هذا الداعي فاني كنت انفرد في غرفتي اطالع واطرب بضجة الاولاد وبالاصوات الموسيقية · اما مطالعاتي فكانت في كتابات تاريخها قبل الحرب لاني فضلتها على ما كان ينشر ايام الحرب اذ كان مفعماً بانفعالات وتشفيات ونفاق وتحيزات ضاعت فيها الاخلاق الطيبة · ومعلوم ان ازمنة الاضطرابات والاهوال تؤثر على النفوس فتلونها بمذمومات الشرور والمفاسد

المطالعة بالارطال او بالكيلوات

١ كنت قبل الحرب يرد عليَّ عددٌ من الجرائد والمجلات مبادلة فلا يمكني الوقت من مطالعتها كلها ولا يسلم لي ضميري بملاشاتها قبل النظر فيها ولو سطحياً وعليه كنت اجمعها في مستودع لعل الاحوال تجمعني بها . فلما شبت الحرب ارتفعت اسعار الورق فاخذ التجار يبتاعون الجرائد والمجلات والكتب يستخدمونها في صر الاشياء فتلاشت كتب ومؤلفات وصحف عديدة ولقد فاوضني احدهم ان ابيعه ما عندي من تلك الصحف ويُبلغ وزنهُ نحو مئتي كيلو فابيت ذلك وقلت ان هذه هي الفرصة المناسبة للاستفادة من تلك الكتابات لاعتقادي انها تسلي وتحلي وتفرج الكربات فعينت لها وقتاً قبل الظهر بين الساعة ٩—١٢ وكثيراً ما هاجمني الكرى عند المطالعة فاحلم احلاماً بعضها مزعج وبعضها جميلٌ . هكذا كنا نقضي غالباً قبل ظهر كل يوم بين سباحة وتنزه ولعب ومطالعة وموسيقى واكل وشرب ونوم . عطلة لذيذة نذكرها بالخير لولا اضطراب العقول والافكار

واجبات بعد الظهر

اما بعد الظهر فكانت واجباتي غالباً تقضي عليَّ بالاجتماع بالعمدة وبالجمعية الخيرية للبحث في شؤون الكنيسة والمحتاجين الذين تكاثر عددهم والمرضى الذين فتكت بهم الامراض على انواعها وقد توفقنا بان منبر الكنيسة في تلك الايام العصيبة خدم تبرعاً فكان ما يجمع من الاحسانات يصرف كلهُ على المحتاجين والمرضى وعلى دفن الاموات الغرباء ولم يكونوا يومئذ بالقليلين

ولقد بذل اعضاء العمدة والجمعية الخيرية وسعهم في جمع الاعانات لتخفيف الشدة عن المساكين الذين كان معظمهم من الغرباء اللاجئين الى بيروت

وبعد انتهاء الواجبات كنا نعرج على صيدلية المرحوم مراد بك بارودي(١) وكان مجلسه مجلس علم قلما يخلو من الادباء والوجهاء وكانت الاحاديث تدور همساً على الشؤون الحاضرة واشتداد الضائقة وكان صياح الجياع وانين الاطفال المنطرحين خارجاً يدخل الى الداخل فيفتت الاكباد على اني لم ار سائلاً دخل الى تلك الصيدلية الا واعطي بلطف اذ كان مبدأ ذلك الفاضل . «اما الفقير فلا تقهر واما السائل فلا تنهر واما بنعمة ربك فحدّث» «والديانة الحقيقية عند الله هي افتقاد اليتامى والارامل في ضيقتهم — كان مراد بك لا يتكلم كثيراً عن الدين ولكنه كان يعيش بروح الدين الصحيح

يا لهول تلك المجاعة التي قال فيها بعض واصفيها «كيف يكون الشقاء اذا لم تكن تلك المشاهد القتالة التي برزت على مرسح البلاد من اطفال وشبان وشيوخ أناثاً وذكوراً — جفت دماؤهم وانطوت على الطوى احشاؤهم ثم فرشوا الارض ثم تلاشوا عليها ثم اندغموا بها»

هذه اعمالنا بعد الظهر وعند المساء ننقلب راجعين الى راس بيروت وقد جمعنا من المزعجات ما تتلاشى امامه المبهجات . فنقضي وقتاً مع بعض اصدقائنا لتشديد القوى المسترخية مسلمين الامر لصاحب العناية الكبرى وعند ما ننطرح على سرير النوم نقدم الشكر لله على ارجاعه ايانا الى منازلنا سلملين من المخاطر والمزعجات

---

(١) توفي في ١٩ شباط سنة ١٩١٨

هكذا قضينا عطلة صيف سنة ١٩١٧ بين سراء وضراء وقد تاقت النفس الى استئناف العمل المدرسي . فاقبل تشرين الاول وفتحت الكلية ابوابها فدخلها عدد من الطلبة وشرعنا بالعمل . وكنا داخل اسوار الكلية الاميركية نشعر بعالم غير العالم الخارجي لان الشبيبة التي نراها امامنا تنسينا شقاء الحياة خارجاً .

تحرُّك الجيش الانكليزي في ساحة فلسطين

مرَّ معنا ان الانكليز حاولوا في اذار الاستيلاء على غزَّة فصدوا بخسارة جسيمة فاستلم الجنرال اللنبي قيادة الجنود الانكليزية في فلسطين في ٢٩ حزيران واخذ باعداد قوَّة كافية . مضى نحو تسعة اشهر والانكليز وقوف وفي اواخر تشرين الاول تحرك جيشهم وزحف على بير سبع فتمكن من الاستيلاء عليها في ٣١ منهُ .

وواصل الزحف الى تل الشريعة فاضطرَّ الجيش التركي الالماني ان يخلي غزه في ٧ تشرين الثاني متراجعاً واحتدم النضال على طول الخط بين بيرسبع ويافا فتقهقر الاتراك في ذلك السهل واخذ الفرسان الانكليز يطاردونهم فاستلموا يافا في ١٧ منهُ وانتهت المعركة بسقوط بيت المقدس في ٩ كانون الاول سنة ١٩١٧ وقد خسرت سوريا بهذه الموقعة عدداً من شبيبتها اسراً وقتلاً وشرع الاتراك يحصنون الناصرة والسلط

وكان السوريون يتوقعون يومئذٍ مواصلة زحف الجيش الانكليزي ليتخلصوا من اهوال تلك الايام ولكن ساء فألهم لان الانكليز وقفوا في بيت المقدس وجوارها مدة ثم هاجموا السلط في الربيع ودخلوها فاكرم الاهالي وفادتهم لكنهم رجعوا عنها فاحتلها الجيش العثماني واخذ يؤدب اهلها الاحتفائهم ،

بالعدو . وكان المتشائمون من السوريين يقولون ان الانكليز اكملوا شوطهم من جهة فلسطين بالاستيلاء على اورشليم . وانهم لن يتقدموا الى سوريا فاوجس الناس ان تطول بهم ازمنة الشدة فتجرف المجاعة ابناء البلاد جميعاً فان رطل الدقيق بلغ ثمنه في بيروت تلك السنة ثلاث ليرات عثمانية (بنك نوت) هذا فضلاً عن نكبات الامراض والنفي والعسكرية وغير ذلك . هذه خلاصة حوادث سوريا الخصوصية والآن نتقدم الى

سير الحوادث في العالم عموماً سنة ١٩١٧

ذكرنا في حوادث سنة ١٩١٦ ان المانيا انذرت الولايات المتحدة باعلان حرب الغواصات عليها اذا هي ظلت تمد اعداءها ببيع الذخائر فابت اميركا قطع علاقاتها التجارية بالحلفاء فشرعت المانيا في ١ شباط باخراج وعيدها الى حيز الفعل بدون ضابط ولا رابط فقطعت اميركا في ٣ منه علاقاتها السياسية بالمانيا وفي ١٤ آذار اقتفت الصين خطوات اميركا — وفي ٥ نيسان شهرت امركا الحرب على المانيا وفي ٨ منه قطعت النمسا علاقاتها السياسية بامركا وفي ١٠ منه اقتفت البلغار خطوات النمسا وفي ٢١ منه جرت مجراهما تركيا وفي ٢٨ منه وافق مجلس الامة الامركي على قانون بانشاء جيش يبلغ نصف مليون وفي ٢٦ حزيران وصل القسم الاول من الجيش الامركي الى فرنسا وفي ٢٧ تشرين الاول شرع الامركيون يحاربون في فرنسا

ساحة العراق

مرَّ معنا في حوادث سنة ١٩١٦ ان الاتراك استولوا في ٢٩ نيسان على كوت الامارة واسروا الجيش الانكليزي الذي كان محصوراً مع قائده

الجنرال طونزند · فالف الانكليز جيشاً ثانياً واعادوا الكرة على كوت الامارة فاسترجعوها في ٢٤ شباط سنة ١٩١٧ · واستولوا على بغداد في ١١ آذار وفي ٢٣ نيسان احتلوا سامراً شمالي بغداد · — وفي ١٨ تشرين الثاني توفي الجنرال مود قائد الجيش الانكليزي في العراق وخلفه الجنرال مرشال

الروس والنمساويون

في ١٢ آذار سنة ١٩١٧ ابتدأت الثورة في روسيا · وفي ٢٣ تموز اخذ الروس يتقهقرون في غاليسيا امام الجيش النمسوي الالماني ففقدوا هالكز وفي ٢٤ منه فقدوا مدينتي ستانسلو وترنوبول · وفي ٣ آب اضطروا الى اخلاء زرنوفتز — وفي ٧ ايلول دخل الالمان ثغر ريغا الروسي على البلطيك وفي ١٥ منه نودي بالجمهورية في روسيا وكانوا قد خلعوا الامبراطور نقولا الثاني

وفي ٧ تشرين الثاني نهض البولشفيك في روسيا بقيادة لنين · ثم عقدت هدنة بين روسيا والمانيا وحليفاتها انتهت بصلح برست لتوفسك

فرنسا والمانيا

كانت حوادث الساحة الغربية قليلة سنة ١٩١٧ فجرت فيها موقعه آراس في ٩ نيسان واسترد الفرنسويون موقع شمان دِدام في ٥ ايار

ايطاليا والنمسا

في ٢٤ آب سنة ١٩١٧ استولى التليان على مونتي سانتو فاستعد لهم النمسويون والالمان وكرّوا عليهم في ٢٤ تشرين الاول فتقهقر التليان وفي

٢٨ منه استولى الجيش النمسوي الالماني على غورتزيا الايطالية وفي ٢٩ منه استولوا على اودسي وفي ٣١ منه انسحب الايطاليون الى تليانتو بعد اسر قسم من جيشهم الثاني. فارسل الانكليز نجدة من جيوشهم الى ايطاليا فوصلت في ٤ تشرين الثاني على ان التليان ظلوا يتقهقرون الى ٩ منه اذ بلغوا نهر بيافي

ساحة المستعمرات

لم يجر فيها سنه ١٩١٧ ما يستحق الذكر سوى فتح المستعمرة الالمانية في شرق افريقية في ١ كانون الاول

منشورات

في ١ كانون الثاني سنة ١٩١٧ رفضت تركيا معاهدة برلين ونظام الامتيازات القنصلية واعلنت استقلالها التام — وفي ١٤ تموز تعين الدكتور مكاليس وزيراً اولاً للامبراطورية الالمانية مكان بتمن هلفج —وفي ٣٠ تشرين الاول تعين الكونت هرتلنغ وزيراً اولاً للامبراطورية الالمانية بدلاً من الدكتور مكاليس

هذه خلاصة حوادث الحرب سنة ١٩١٧ استندنا في خصوصياتها على مفكرتنا اليومية وفي عمومياتها على اصدق المصادر ليرجع اليها عند الحاجة. والسبب الذي دعانا الى الاسهاب في الخصوصيات اكثر من العموميات هو، ان الحوادث الشخصية الخصوصية اثرت في نفوسنا اكثر من العمومية فكانت تنبهنا الى ملاحظات كثيرة جديرة بالتدوين وقد تجنبنا كل تحامل ليكون تاريخنا هذا ذا قيمة

اعظم حرب في التاريخ

وكيف مرت حوادثها سنة ١٩١٨

سير الحوادث في بلادنا

لم تكن حوادث سنة ١٩١٨ مختلفة في نوعها عن حوادث سني الحرب السابقة ولكنها كانت اشد وطأة على البشرية . فالاختلاف كان في الدرجة لا في النوع . فان المتسولين الجياع الذين كانوا مطروحين في شوارع المدن السورية بين سنة ١٩١٤ و سنة ١٩١٧ جرفتهم المجاعة وحل مكانهم عدد من ابناء الطبقة الوسطى ممن كانوا عائشين قبل الحرب براحة وسلام . هؤلاء باعوا ما يملكون واشتروا انفسهم وعيالهم من الجوع او العسكرية . ثم ما لبثوا حتى فرغ ما بايديهم وتمادى المحتكرون برفع اسعار الحاجيات وقست قلوب الاغنياء وقلت الرحمة ففغرت المجاعة فاها واخذت تبتلع البقية الباقية من اطفال ونساء ورجال كانت آثار النعم والتهذيب ظاهرة عليهم

الاحتفاء بالعظماء

ومع ما كانت عليه البلاد يومئذ من التعاسة والشقاء فان زوارها العظماء كانوا لا يفتأون يترددون عليها من وقت الى آخر فيؤمر الشعب برفع الرايات على الشرفات وابواب المنازل والمخازن احتفاء باولئك الزائرين الذين كان الرجال يموتون في ساحات الحرب والنساء والاطفال في الشوارع ليتمجدوا هم

ومن المؤلم ان الرايات التي كان يؤمر الشعب برفعها كان يشترط فيها ان تكون بقياسات معلومة من حيث الطول والعرض والويل لمن يخالف تلك الاوامر

اذكر ان انور باشا وزير الحربية التركية زار سورية اثناء الحرب اكثر من مرة تفقداً لجبهة فلسطين . وفي شتاء سنة ١٩١٨ اعلن عزمهُ على زيارة مدينة بيروت مع بعض القواد الالمان . فاوعز الوالي بوجوب تزيين المدينة ودعا الدوائر والمعاهد العلمية على اختلافها لملاقاة الوزير الخطير

فطلب رئيس الجامعة الاميركية من الاساتذة والتلامذة مرافقتهُ للملاقاة فاصطف ابناء الكلية من بيت الوالي عزمي بالقرب من المستشفى البروسياني الى جهة حاووز الساعتيه وكان ميعاد وصول الوزير ورفاقهِ الى بيت الوالي الساعة التاسعة قبل الظهر ولكنهم تأخروا الى الساعة الثانية عشرة فالتزم الرئيس والاساتذة والتلامذة ان يظلوا واقفين وقوف الخضوع نحو اربع ساعات ليؤدوا التحية . ولما اقبل الوزير انور وحاشيته بسياراتهم هتفت الجماهير . وكانت الاوحال تتطاير من عجلات تلك السيارات فاصاب وابل رشاشها عدداً من المشاهدين المحتفين فشكروا الله ان البلية لم تكن اعظم

وفي اليوم التالي امر الوالي بوداع الضيوف وكان ذلك اليوم كثير الامطار فتوجهت الجماهير الى ناحية فرن الشباك ووقف عظماء المدينة واهل المقامات العالية ينتظرون موكب الوزير والقواد ليؤدوا واجب الوداع كما ادوا واجب الاستقبال

[هذا مثال من التمجيد والتعظيم الذي كان يتوجب على اهل البلاد تقديمهُ لطغاة الحرب الذين ادخلوا اوطانهم في اتون الوغا وسببوا قتل الوف من ابريائهِ الرجال والنساء والاطفال بما اذاقوهم من لباس الجوع والخوف والمذلة والعار

التشديد في طلب المال والرجال

قلنا ان الدولة كانت في حاجة الى مال ففرضت على المكلفين الضرائب

الباهظة وصادرت ما صادرتهُ من بضائع وبغال وجمال ، ثم شعرت بحاجتها الى الرجال لكثرة من قتل من جنودها في ساحات الوغى ومن مات من زمهرير القوقاس وحر الصحارى وفتكات الامراض والاوبئة فاخذت سنة ١٩١٨ تراجع سجلاتها تفتيشاً عن الفارين ناشرة اعلانات التهديد المخيفة

ومما اتذكره ان السلطة طلبتني مرة بواسطة الجاندرمة لأ كلم في (القراقول) فاستولى عليَّ الوجل لاني لم اعلم الداعي الى طلبي ولا سيما ان كثيرين كانوا يطلبون ولا يتمكنون من الرجوع الى بيوتهم فيرسلون الى المجلس العرفي او يبعثون الى الداخلية او يساقون الى جبهات الحرب ، وبينما كنت سائراً برفق الجاندرمة اضرب اسداساً لاخماس اخذت اسأله عن سبب طلبي فاجابني انه لا يعلم شيئاً فسألتهُ عن اسم الضابط مدير (القراقول) فاعلمني بذلك فلما بلغت المكان دخلت فسلمت مسمياً الضابط باسمهِ فهش وبش فامتأنست بهِ واجلسني بالقرب منهُ فسألتهُ ماذا يريد فاخذ سجلاً كبيراً من جانبهِ اوراقهُ مشكلة بين اصفر وازرق واخضر واخذ يفتش فيهِ وهو يكلمني قائلاً : رأت السلطة العسكرية ان كثيرين لا يزالون فارين من الجندية لم يسلموا نفوسهم الى الان ولاعتقادها ان الرؤساء الروحيين اصدق من المختارين اخذت تستدعيهم ليخبروها عن مقر الفارين وقد قيل لنا انكم نائب رئيس الكنيسة البروتستانية في بيروت وعليه اقرأ امامكم الان اسماء الذين لم يسلموا انفسهم للعسكرية من طائفتكم لتخبرونا ما تعرفون عن مقرهم :

فقلت في نفسي انهُ لموقف صعب وعسى ان لا اكون بين هذه الاسماء — ثم شرع يقرأُ تلك الاسماء وهم خليط من عرب وارمن وبعضهم من المحكوم عليهم بالاعدام ولما اكمل القراءة نظر اليَّ وهو يقول : مطلوب منك ان تشرح

عند كل اسم معلومياتك عنه ثم تختم في الآخر بخاتم الكنيسة . فاجبته برقة متناهية ان رئيس الكنيسة توفي في اول الحرب وانا نائب رئيس موقتاً . فلا استطيع ان اجيب سعادتكم عن كل شخص فوراً فارجوكم ان تمهلوني يومين لادرس هذه القضية فيكون الجواب مضبوطاً . لاني لا اريد ان اجيبكم جواباً يجر عليّ مسؤولية كبرى .

فاعجبهُ اقتراحي هذا وسمح لي بما طلبت و بعد ان درست القضية وفقني الله تمام التوفيق لاني تأكدت ان الاشخاص المطلوبين جميعهم ليسوا في سورية فبعضهم في اميركا والبعض في مصر والبعض في السودان فعدت اليهِ وشرحت لهُ ما اعرفهُ عن كل منهم ووضعت الختم والتوقيع

هذه من بعض الرعبات التي كنا نفاجأ بها من وقت الى آخر . على ان هذه المزّات كانت تقابلها بعض مظاهر الفخفخات في الرسميات . فكما كنا نبتلي ببلائهم كنا ايضاً نأكل من حلوائهم . مثاله في الاعياد التي تحتفل بها الحكومة كنا ندعى مع المدعوين للقيام بمراسيم التهنئات اما الرؤساء الروحيون فكانوا بحسب اللائحة اول من يسمح لهم بالدخول الى ردهة استقبال الوالي في دار الحكومة . ولم يكن عددهم بالقليل فكان منهم الائمة والبطاركة والمطارين ومن ينتمي اليهم وكانوا جميعهم متعممين متقلنسين الاثواب البروتستانية فكانوا بالاثواب العادية والطربوش .

وكان يتصدر في الردهة الكبيرة الوالي وجمال باشا (عند وجوده في المدينة) فيدخل الرؤساء على الحان الموسيقى العسكرية ويصافح كل منهم الحاكم باليد و بعد الانتهاء يقف الكل فيعين الوالي حسبما كنت الاحظ مجالس اربعة اشخاص فقط ويطلق للباقين حرية الجلوس اينما ارادوا . اما الاربعة اشخاص

الذين تعينوا اما كنهم فهم القاضي عن يمين الحاكم ٠ والمفتي عن يساره و بطريرك السريان بجانب القاضي ومطران الارثوذكس بجانب المفتي ٠ هذا ما كنت الاحظهُ في ايام الولاة الثلاثة الذين تعاقبوا على ولاية بيروت في ايام الحرب وهم بكر سامي بك وعزمي بك واسمعيل حقي بك ٠ ولعل هذا الترتيب المشار اليهِ سنة قديمة كان يجري عليها العثمانيون ولم يكن من البطاركة بين الرؤساء الروحيين في زمن الحرب الا بطريرك السريان فلم اعلم كيف يعاملون بالنسبة الى بعضهم (اي بحسب السن او الطائفة)٠ و بعد جلوس بضع دقائق كانت تعزف الموسيقى العسكرية اشارة للانصراف فيقف الحضور مودعين افراداً كما دخلوا ثم يدخل جوق آخر من المتوظفين وهلم جراً

على ان هذه الحفلات كان احياناً يكدر صفوها باصوات مدافع بوارج الحلفاء التي كانت تكثر من التردد سنة ١٩١٨ على شواطيء سورية ٠ وكان في رياق مركز للطيارات فيسرع بعضها لمناجزة هذه البوارج وقد شاهدنا بام العين موقعة جرت بين طراد فرنساوي وطيارة المانية فكانت هذه تصب قذائفها على الطراد وهو يقابلها بالمثل وكان كلاهما يبديان من رشاقة الحركات تجنباً لمقذوفات عدوه ما يدهش العقول ولكن الموقعة مع احتدامها انتهت على سلامة بعد ان طارت قلوب الناس من الخوف

ومما هو جدير بالذكر ان عرى التآلف ازدادت توثقاً بين الناس في سورية على اختلاف مذاهبهم فاصبح المسلم ينادي المسيحي يا اخي وكان كلاهما ينظران الى تقدم الحركة الحجازية بارتياح متوقعين بذاهب الصبر التخلص من النير التركي لان شدتهُ في هذه الحرب وقعت على كليهما

وهذا اذكرني بحكاية الاسد والذئب والثعلب عند ما اشتركوا في الصيد

فاقتنصوا حماراً وغزالاً وارنبة فطلب الاسد من الذئب ان يقسم الصيد بينهم . فقال ان القسمة ظاهرة فلا تحتاج الى كبير عناء . فالحمار حصة الاسد والغزال حصتي والارنبة حصة الثعلب فلما سمع الاسد ذلك استشاط غيظاً وضرب الذئب ضربة رفعتهُ عن الارض ، فتعلق بين غصني شجرة . ثم التفت الى الثعلب وقال كيف تقسم انت هذا الصيد ؟ . فقال الثعلب مولاي ان الامر ظاهر فالارنبة فطور لسيدي الاسد و الغزال غداؤهُ والحمار عشاؤهُ فطاب لذلك قلب الاسد وقال للثعلب ((عفارم عفارم) ابا الحصين . فمن الذي علمك في التقسيم حسن الذوق . اجابهُ مشيراً الى الذئب علمني يامولاي حسن الذوق هذا المعلَّق فوق .

هذا المثل يوضح لنا الدواعي التي دعت سكان سوريا على اختلاف مذاهبهم الى التآلف والمؤاخاة . ان الذي دعاهم الى ذلك هو ضغط النير الثقيل على رقاب الجميع فلما وقع الاحتلال عاد الناس الى الانقسامات والتحزبات وزادوا في طنبور الاختلاف نغمات كما سيجيء .

مجري الحوادث في العالم عموماً

في ١ شباط اعترفت المانيا والنمسا بجمهورية اكرانيا . وفي ٩ منهُ عقد الصلح في برست لتوفسك بين المانيا وحليفاتها من جهة وبين اكرانيا من الجهة الاخرى . وفي ١٠ منهُ اعلن البلشفيك رسمياً ان روسيا خرجت من الحرب وفي ٢٤ منهُ استرد الترك طرابزون .

وفي ٣ اذار عقد الصلح في برست لتوفسك بين المانيا وحليفاتها وبين البلشفيك في روسيا — وفي ٧ منهُ عقد الصلح بين المانيا وفنلندا — وفي ٩ منهُ استرد الترك مدينة ارضروم — وفي ١٣ منهُ دخلت الجنود الالمانية اودسا

وأمضيت معاهدة برسنت لتوفسك

فيظهر مما تقدم ان المانيا قد تمكنت في مدة قصيرة من اجراء أعمال حربية مدهشة فانها فوق سحقها بلجكا وسربيا والجبل الاسود ورومانيا دوخت روسيا الدولة العظيمة والجأتها الى صلح مفرد املت هي فيه الشروط : على ان المانيا مع كل ما اظهرت من الحول والطول ادركت ان اعداءها يزدادون تالباً عليها يوماً بعد آخر فاصبح معظم سكان الكرة الارضية ضدها وعليه كانت كلما انتصرت انتصاراً تدعو اخصامها الى المصالحة على شرط لا غرامة ولا استلحاق فكان اعداؤها ولا سيما انكلترا يرفضون طلبها هذا بدعوى ان مصالحتها على هذه الصورة يحط من مقامهم . فصمموا النية على مواصلة القتال الى النهاية لعله يتهيأ لهم صلح يكونون هم فيه اصحاب الامر والنهي . وكانك بالانكليز ارادوا ان يجروا في هذه الحرب اتباعاً لسياسة دولة الرومان التي كانت تأبى مصالحة خصمها مقهورة

مر معنا ان الولايات المتحدة دخلت سنة ١٩١٧ على جانب الحلفاء مستعيضين بها عن روسيا واخذت تكتتب الكتائب وتعد المعدات وشرعت البواخر تنقل الجيوش من اميركا نجدة لاوربا على المانيا فشعرت هذه بخطر الموقف فحاولت ان تسحق اعداءها في الساحة الغربية قبل ان تتكاثر نجداتهم فرأت ان تجري هجوماً عظيماً لم يشهد التاريخ مثله

بدأ ذلك الهجوم في ٢١ اذار (مارس) سنة ١٩١٨ فساقت المانيا جحفلاً لجباً ومن خلفه قوة احتياطية عظيمة وتقدمت نحو باريس واخذت تقذف عليها المدافع البعيدة المرمى عن مسافة نحو ٧٥ ميلاً وقطعت الجيوش الالمانية في زحفها نهر السوم فتقهقرت الجيوش الانكليزية الفرنساوية امامها متخلية عن عدد من المدن والحصون . وكان غرض الالمان من هذا الهجوم فصل القوات

الانكليزيه عن القوات الفرنساوية لكي يتمكنوا من اختراق طريق الى مدينة اميان مركز القيادة الانكليزية فيستولوا على الخط الحديدي الممتد من كاله الى باريس و يشرفوا على بحر المانش

اما الحلفاء فكانوا الى ذلك الحين غير موحدين قيادة جيوشهم فشعروا عند هذا الهجوم بوجوب ذلك فاتفقوا في ١٤ نيسان (ابريل) على تعيين الجنرال فوش قائداً عاماً لجيوشهم فاخذ يحاول توقيف الزحف الالماني بكل ما لديه من الوسائل. وما زال الالمان يضغطون بجحافلهم الجرارة على جيوش الحلفاء وهؤلاء يتراجعون و كلا المهاجمين والمتراجعين تباع منهم الارواح بيع السماح فاستولى الالمان في هذا الهجوم على عدد من المدن والحصون منها — بيرون و بابوم وارمنيتير — ولكنهم لم يستطيعوا الفصل بين القوات الانكليزية والفرنساوية

ثم عادوا واستأنفوا هجومهم في ٢٧ ايار (مايو) فاستولوا في ٢٩ منهُ على سواسون و بلغوا في ٣٠ منهُ ضواحي ريمس — وفي ١ حزيران (يونيو) وصلوا الى شاتو تييري وعبروا نهر المارن واستولوا على عدة اماكن جنوبية واصبحت باريس مهدَّدة

غير ان جيوش الحلفاء عادت فثبتت اقدامها بما ضمَّ اليها من النجدات الاميركية فوقفت في ٤ حزيران في وجوه الالمان فارجعتهم الى ما وراء المارن وفي ١١ منهُ هاجمتهم بين مونديديه ونوايون . وهنا توقف الزحف الالماني

وفي ١٨ تموز بدأ الحلفاء هجومهم فاستردوا مدينة سواسون وفي ٢١ منهُ احتلَّ الفرنساويون مدينة شاتو تييري — وفي ١٠ آب استردوا مدينة مونديديه وفي ٢١ منهُ استولى الانكليز على مدينة أبير . وفي ٢٧ منهُ استولى الفرنساويون

على مدينة روي · وفي ٢٩ منهُ احتل الانكليز بابون والفرنساويون نوايون — وفي ١٣ سبتمبر استولى الاميركيون على سان مهيال جنوب فردون

على انهُ عند ما كان وطيس الحرب محتدماً في ساحة اوربا الغربية بين ٢١ اذار واواسط ايلول كانت بقية الساحات متحركة ايضاً · فان المانيا في ١٤ نيسان احتلت عاصمة فنلندا · وفي ٢٧ منهُ استولى الاتراك على القرص في القوقاس · وفي ١١ ايار احتل الالمان قلعة سبستبول في القريم · وفي ١٧ منهُ اكتشف الانكليز في ايرلندا موءامرة لمصلحة المانيا فالقوا القبض على الزعماء — وفي ١٤ حزيران احتل الترك مدينة تبريز في ايران · وفي ١٥ منهُ ابتدأ الهجوم النمساوي في سهل اسياغو في ايطاليا الى البحر

كل ما تقدم دلَّ على ان المانيا وحلفاءها تحركوا معاً في الهجوم الذي بدأ في ٢١ اذار لعلهم يتمكنون من نيل مآربهم من العدو فيجعلوا قناته تلين بعد الشدة · ولكن الحلفا لتكاثر جيوشهم وعظم مواردهم استطاعوا ان يحتملوا تلك الصدمات · وبعدان ظلوا عدة اشهر متقهقرين عادوا في اواسط تموز الى موقف المهاجمين ومن ثمَّ اخذ الالمان لقلة الجيش الاحتياطي عندهم يتراجعون فان الجندي من جيوش الحلفا كان بعد تكاثر الجيش الاميركي في الساحة الغربية يستطيع ان يرتاح من المحاربة واهوال الخنادق باستبداله بآخر فتتجدد قواهُ وهذا الامر لم يكن يتهيأ للجندي الالماني سنة ١٩١٨ بعد ان خسر خسائر عظيمة في هجماته السابقة فكان عليهِ ان يقف ساعات عديدة في مواقف النضال دون استراحة وعليه رأت القيادة الالمانية ان لا بد من التراجع بعد ذلك الهجوم العظيم الذي حاولوا فيهِ سحق اعدائهم الانكليز والفرنساويين قبل وصول النجدات الاميركية فاخفقوا

آخر مواقع الحرب

قضينا عطلة الصيف في بيروت وفي اواخر ايلول هزنا الشوق الى سياحة جبلية ترويحاً للنفس قبل ابتداء العمل المدرسي فتوجهت مع بعض الانسباء الى بحمدون وعند بلوغنا اياها سمعنا اشاعة في ان عرب الشريف بلغوا درعا وان الجيش الانكليزي في فلسطين شرع في زحفه فسقطت في يده حيفا وعكا والناصرة — ثم نزلنا الى سوق الغرب وقضينا ليلةً وقد شعرنا ان مدينة بيروت اشبه بمدينة اموات لاشتداد الظلمة في ارجائها لسبب نفاد زيت البترول منها فتذكرنا زمن قبل الحرب حينما كان ذلك الساحل يتلألأ ليلاً بالانوار الارضية تلمع فوقهُ الكواكب السموية فيزداد مهابة وجمالاً

وفي اليوم التالي اتينا الى عاليه فشاهدنا حافلات القطار مزدحمةً بعدد من الالمان والاتراك وجهتهم رياق — ويوم السبت في ٢٨ ايلول هبطنا الى بيروت فالتقينا بمئات من العساكر التركية متراجعين شرازم شرازم في حالة يرثى لها حفاة باسمال بالية والجوع والتعب بادٍ عليهم فتأثرنا لمنظرهم. وسالنا بعضهم فاجابونا بالتركية فلم نفهم منهم سوى كلمات — انكليز — حيفا — عكا

وصباح الاحد في ٢٩ ايلول كان الالمان والاتراك يخرجون من بيروت بسرعة وقد شعر الناس في ذلك اليوم بزلزلة شديدة فاستولى الرعب على القلوب

وقبل فجر الثلاثا في ١ تشرين الاول غادر بيروت الوالي اسمعيل حقي بك مع عدد من متوظفي الاتراك. ثم وصل الى المدينة منشور يقول، ان الاتراك تركوا دمشق وسورية واضحت البلاد مستقلة تحت حكم عربي ،، — واكتظت

بيروت بالشبان الذين مر عليهم سنوات وهم مختفون من وجه الجندية · واصبح الجياع المطروحون في الشوارع تبرق أسرتهم بالرجاء لان الايدي مدت الى مساعدتهم ودنا وقت خلاصهم من المجاعة

- ونهار الاربعا في ٢ تشرين الاول وصل من دمشق الى بيروت برقية بتوقيع راس الحكومة العربية يشير الى بعض تعليمات — ثم ظهر في الجو طيارتان انكليزيتان فاستأنس الناس بهما وتوقعوا ان ترميا اوراقاً تبشر بالخير ولكنهما بدلاً من ذلك طرحتا بعض قذائف على (البور) طارت منها شظايا الى الاسواق فذُعر الناس وتركوا محلاتهم هاربين · فكان مثل تينك الطيارتين مثل من رمى محبوبتهُ بالمحدله زاعماً انها حصاة العشرة والملاطفة

وكان نهار الخميس والجمعة في ٣و٤ تشرين اول يومي اشاعات واضطرابات واشأم تلك الاشاعات التي راجت هو سلب بعض الاهالي للجنود التركية الهاربة وهجومهم على (الانابر) والذخيرة وعلى المستشفيات وانزال المرضى عن اسرتهم وسلب الاثواب والشراشف الى غير ذلك من الشائنات التي تأباها النفوس العزيزة — وفي ٤ تشرين الاول احتفل الساعة الرابعة بعد الظهر في دار الحكومة برفع العلم العربي بحضور جمهور كبير ولكن لم يطل الامر حتى صدرت اوامر عسكرية بانزال ذلك العلم · وكانت بيروت بين اول تشرين الاول و٥ منهُ مسرح للفوضى والتشويش مع انهُ لم يحدث شيء من السلب ولا النهب

وصباح الاحد في ٦ تشرين الاول دخل الى ميناء بيروت اربع بوارج انكليزية وفرنساوية فنزلت المدينة الى الرصيف لملاقاتها وكانت الجماهير صغاراً وكباراً يهتفون احتفاءً بها · ويقال ان غرض تلك الدوارع كان تأكد هرب الاتراك من بيروت · وكان السكان يؤلون لكل حركة معنى من المعاني

وكل يهرف بما لا يعرف متبعاً هواه مغنياً على ليلاه

وفي ٨ تشرين الاول احتل الانكليز بيروت — فكانت الايام بين ٨ تشرين الاول وآخره مفعمة بالحوادث فاخذت الجيوش تتوارد عن طريق البر والبواخر تقبل الى بيروت حاملة ذخائر. وانهُ لجيش صدق فيه قول المتنبي

تجمع فيهِ كل لسنٍ وامة فما يفهم الحداث الا التراجمُ

تألف ذلك الجيش من انكليز واسكتلنديين وايرلنديين واوستراليين وهنود وفرنساويين وتونسيين وصينيين ويابانيين الخ

وكانت هذه الجيوش شبعانة فتترك فضلات طعامها للجياع الذين اكلوا وشبعوا وسمنوا ومجدوا الله

وهنا لا بد لنا من الرجوع الى وصف المعركة الفاصلة التي سحق بها الجنرال اللنبي الجيش التركي . ان هذه المعركة بدأت الساعة الرابعة وربع من صباح ١٩ ايلول سنة ١٩١٨ فتأهب الجيش الانكليزي من السلط الى حيفا وعند ما جاءت الساعة بدأت المدفعية تدوي على طول الخط من السلط الى طول كرم وانتصبت عمد النار من الارض الى السماء وتكاثف الدخان فتراءى للمشاهدين ان الارض زلزلت زلزالها واخرجت اثقالها . ثم هجم الفرسان الانكليز اولاً فخرقوا الجيش التركي باقل من ساعتين فاستولى الذعر على الالمان والاتراك. فسقطت طول كرم ونابلس والناصرة وعكا وحيفا بين ١٩ و٢٣ ايلول وانكسر الجيش التركي واخذ العدو يطارده بالفرسان والطيارات . وفي ٢٦ ايلول سقطت عمان واستمرت المطاردة فسقطت دمشق في ١ تشرين الاول (اكتوبر) واحرق الجيش الهارب ذخائره في دمشق ورياق مواصلاً الهزيمة الى حمص فحماه فحلب التي سقطت في ٢٦